الإنسان هذا الجوهر النفيس

مهندس

الصافي جعفر الصافي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اســـم الكتاب : الإنسان هذا الجوهر النفيس
المــــــــؤلف : م. الصافي جعفر الصافي
رقـــم الإيداع :

الطبعة الأولى ٠١٢

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة : ٤ ميـدان حليــم خلــف بنــك فيصــل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٩٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

الفهـــــرس

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، قيوم السموات والأرض، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيد ولد آدم، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم يسر وأعن)

مقدمة الطبعة الثانية

الإنسان.. هذا الكائن المحير.. القادم إلى الأرض... أمره عجيب... رحلته طويلة منذ بدايا ته في الأزل.. فقد كان في سـراديب العدم.. وأكرمه الله بأن ناداه من دنيا العدم ومن عليه بالإيجاد.. والبسـه لبسـة الوجود.. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ النحل: ٤٠ وقد من الله عليه بهذا الخطاب فانتقل إلى الوجود بكرم من الله وفضـل.. وعاش في خضـراء الجنة زماناً كما أخبرنا القرآن.. ثم قضـى الله بأن يترك الجنة فينزل.. إلى كون جديد هو (الأرض) ليعيش عليها بعد أن هيأها له وهيأه لها..

وفي الأرض.. بدأت رحلة التناسـل من أصـلاب الرجال وأرحام النسـاء ومعها بدأ زحف البشـرية وتكاثرها.. وبدأت حركة التنمية.. وحركة الحضارة..

انطلق كل ذلك.. من داخل هذا الإنسان .. الضئيل الحجم.. جرم صـغير للغاية إذا قارنته بالكائنات على وجه الأرض.. ولكن له قدرات هائلة.. تُحرك ما على الأرض.. و تديره.. تبنيه و تدمره.. تحسـنه وتقبحه.. إذا نظرت إلى هذا المخلوق فالصورة الخارجية هي مجموعة من اللحم والعظام والأعصاب .. أمشاج من عروق ودم.. وهي نفس المكونات لعالم الحيوان..

ولكن إذا سبرت غور هذ المظهر الخارجي فستلمس حقائق مذهلة.. وتضع يدك على عوالم شتى تموج داخل هذا الجسم الضئيل.. وحتى لا تتوه في هذ المعطيات العامة.. فأنى أ سوقك – أخي القارئ– إلى واحدة من مكونات هذا الآدمي.. وهي (القلب).. دعنا نحاول أن نفهم عنه شيئاً، خاصة أنك ستجد داخل هذه الرسالة وصفاً بايولوجياً له .. شكله وحجمه. وأنه في ظاهره أشبه بـــ (مضخة) تدير حركة الدم في عروق الجسم البشري.. والجسم في ذلك أ شبه بمشروع زراعي يمثل القلب فيه محطة (مضخات) وتمثل العروق شبكة الري..

هذه ظواهر الأشياء.. في أمر هذه القطعة من اللحم القابعة في الشق الأيسر من الصدر..

ولكن القرآن يلفت نظرنا إلى أن هناك وظيفة أخرى لهذا القلب نقرؤها في قوله تعالى يقص علينا كيف أن هذا القرآن نزل من الله بواسطة جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤.. وتلاحظ أن محور التنزيل هنا هو القلب... ما تعريفه... وما سره... أتراه هو هذه القطعة من اللحم المعروفة.. والمعروفة عند الأطباء.. أم أن هناك معنى آخر.

وهنا بدأت مسيرة الحيرة في تاريخ البشرية.. ذهب فلاسفة وعلماء الكلام وأهل التصوف مذاهب شتى في التعريف والتعرف، ولقد شارك شيخنا أبو حامد الغزالي – فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء– بجهد

مقدر في استجلاء حقيقة هذا القلب.. يقول في سفره الجليل (إحياء علوم الدين) الجزء الثالث: (لفظ القلب يطلق لمعنيين: أحدهما اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحمٌ مخصوص وفي باطنه تجويف وفي ذلك التجويف دم ولسنا نقصد شرح شكله وكيفيته فإن هذا من أغراض الأطباء.. وهذا القلب – بهذه الوظيفة- موجود في البهائم وأنواع الحيوانات بل موجود في جسم الميت..

والمعنى الثاني: لكلمة القلب هو لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو الجزء المدرك العالم العارف منه وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ولها علاقة بالقلب الإنساني.. وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته، و شرح ذلك مما نتوخاه لسببين: أولهما: أنه يتعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة.. وثانيهما: أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس لغيره أن يتكلم فيه).

ويظهر من ذلك أن كلمة (قلب) لها دلالات أخرى غير محسوسة وأن مداها أشمل من التعريف (الفسيولوجي) المعروف في عالم الأطباء.

ومن خلال التجربة التاريخية في مسيرته صلى الله عليه وسلم نلمس هذا البعد الثاني لكلمة (قلب) خاصة عندما نتأمل الآية الكريمة (نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين) .. فإن هذا (قلب) قد

صـمم وأُعد لكي يؤدي وظيفة أخرى غير وظيفة ضـخ الدم في العروق.. وظيفة تلقي هذه التنزيلات الربانية من لدن حكيم عليم.. وتحس باسـتعداد هذا القلب لهذه الوظيفة عندما نقرأ قول الله تعالى في طبيعة هذا القرآن: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الحشـر: ٢١.. وهي إشـارة إلى ثقل هذا التنزيل.. الذي عبرت عنه الآيات في خطابها لرسـول الله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ المزمل: ٥.. ولقد روى في طريقة نزول سورة الأنعام إنها نزلت على رسـول الله وهو على ناقته.. فما تحملت الناقة وبركت.. لأن الحمل كان أكبر من طاقتها والعجيب أن رسول الله كان ثابت الجنان على ظهرها وهذا يعكس مدى اسـتعداد قلبه الشـريف لاستقبال الوحي..

إذن هو قلب يؤدي أكثر من وظيفة وهو قد أعد وصـمم لكي يؤدي هذا الدور الكبير كما يصمم المهندسون مطاراً دولياً بمواصفات عالية تسمح باستقبال الطائرات الكبيرة ذات الوزن الثقيل.

وهذا مجرد وقفة أمام واحد من مكونات هذا الآدمي وعلى ذلك قس بقية مكوناته وسـتجد إنك أمام عالم ضـخم اسـمه الإنسـان ولقد صدق القائل:

وتحسب إنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

حول هذه المعاني.. وفي محاولات للتعرف على خبايا هذا المخلوق البشـري.. دارت سـطور الطبعة الأولى من هذه الرسـالة ونفذت من حينها ولقد مضـت سـنوات وتغيرت أحداث وجدت ظروف.. وألح عليّ جمع من أخوة أصـفياء لإعادة طبع هذه الرسـالة فاسـتجبت رغم زحام الشـواغل.. وعدت إلى طبعة قديمة.. أجريت عليها بعض الإيضاحات والإضافات بما سمح به الوقت..

وهاهي الطبعة الثانية بين يديك – أخي القارئ– أدفع بها في محاولة لتحريك العقل وإزكاء روح التأمل رجاء الإطلاع والنظر والتصـويب والإضافة..

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم،،

مايو ٢٠٠٦

إهـــــداء ومناجـــــاة

- والدي .. القرآني الشفيف .. جعفر[1]

- وأمي الودود المعطاءة .. بنت المدني..[2] زوجته وأخته في الله كما كنت أســمعها تردد، بل أختي في الله كما كانت تناديني في حياتها (أخونا الصافي)..

- وجدتي العارفة.. الزلال بنت عبدالله..[3] والدة (جعفر)، وأخته في الله كما كانت تناديه (أخونا جعفر)..

هذه الأ سرة ذات النسيج العجيب، والنسق الفريد.. كان الإخاءفي الله هو وشيجتها الأولى قبل الرحم..

آبائي وأشياخي وإخواني:

لقد ترعرعت في هذا الجو، أتملى هذا النوع من الوشــائج الربانية، وأتنسم عطر ذلك الإخاء..

---

[1] جعفر الصافي: والد المؤلف.

[2] بنت المدني: الحرم المدني عبدالله والدة المؤلف.

[3] الزلال عبدالله عبدالصمد: جدة المؤلف من والده.

ولطالما جلستُ خلف باب (الديوان)، ومن خلال شقوقه أتصنت واسترق السمع إليكم وأنتم تجلسون مع إخوة لكم.. في قريتنا الساجية بالشمال (البار)[٤]، أو في الحي العتيق (السجانة)[٥]، تتبادلون جواهر المعاني في مجالس (السير والسلوك) كما أ سميتموها، وتديرون فيها التأملات العميقة في معاني القرآن والسيرة.. وتتحدثون عن الإنسان هذا الكائن العجيب.. سره، وقدراته، واستعداداته، وكيف يستطيع أن يرتقي فيتجاوز مصاف الملأ الأعلى. وكيف يتسافل فينحط ويصبح أ سوأ من الحيوان. لقد كانت تدهشني تلك المفردات، وتشدني تلك المعاني وأنا يافع صغير، وعندما شببت عن الطوق رحت ألهث وراء تلك المعاني، وألتمس إليها السبيل، و صدى تلك المجالس يستحثني ويجذبني.

آبائي...

لئن قعدت بي الهمة عن العروج إلى تلك الآفاق، وفاتني شرف اللحاق بالركب الميمون، فأرجو أن لا يفوتني شرف الدندنة حول تلك المعاني الفساح، التي كنتم تتحلقون حولها.. وأن لا يحال بيني وبين التعرض لنفحاتها، لعلي أصيب قبساً من ذلك الوادي المقدس، أو أجد على النار هدى.

---

[٤] البار: قرية المؤلف وهي تقع في شمال السودان في محافظة مروي – عمودية جلاس سابقاً.

[٥] السجانة: حي عتيق من أحياء الخرطوم هاجر إليه والد المؤلف وأقام فيه أخيراً.

والسـطور التالية – أحبتي – فيض من ذلك الألق القديم، الذي ترسب في اللاشعور زماناً، ثم أذن الله له أن ينبجس..

وهي إذن – آبائي – بضـاعتكم ردت إليكم.. فدعوني أتجاسـر فأهديها إليكم، وفاء ابن لآبائه، بل أخ لإخوته في الله حسـب تعابيركم السامية السامقة.

رحمكم الله جميعاً، وبوأكم مقاعد الصـدق عند المليك المقتدر، ورضي عنكم رضاءً لا سخط بعده.

إستهـــــــلال

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ فصــلت: ٥٣

إستهـــــــلال

الإنســـــان:

هذا الكائن العجيب الغريب.

مجمع البحرين.. بل مجمع المتناقضات.

لقد حير حاله وكنهُه العلماء والفلاسـفة.. والعارفين.. وملأت أخباره كتب الله المنزلة على رسـله.. وشـغل أمره الشـعراء وأرباب الخيال.. وعشاق الواقع.

في مسيرته الطويلة، وعبر عمره المديد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ الإنســان: ١ ، تنقل تنقلات واسـعة، وعبر مسـافات شـاسـعات، من ظلام الكهوف إلى ضـياء الكواكب، بل إلى سـطح القمر، ليعقد مؤتمراً صـحفياً هناك ينادم فيه أهل الأرض.

هذا الكائن الضئيل الحجم، استودع الله فيه أسراراً كباراً، وقدرات متناهية.. فهو قويٌ ضعيفٌ.. ضئيل مهيبٌ.

قاد بعقله الوقاد حركة الاكتشافات في داخل دولة الجسم، وفي عالم النبات والحيوان، وفلق الذرة.. ومع كل ذلك تتسـرب إليه حشـرة ضئيلة، فتصرعه، فيولول من أثرها:

وزائرتي كأن بها حياء ❋ فليس تذور إلى في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا ❋ فعافتها وباتت في عظامي

إن أمره لعجب..

كم يا ترى نسبة المساحة التي يشغلها مقارنة مع ما يُحدثه؟ بل كم نسبته إلى المجرة التي يعيش عليها؟. إن مساحة الأرض التي يعيش عليها يشغل الماء منها حوالي ٧٢٪ والبقية يابسة.. المجرة التي تنتمي إليها أرضنا هي واحدة من إحدى عشرة مجرة مرفوعة للأس ١٠ (١١^{١٠}) من المجرات، عائمة في الفضاء والسديم الرحب والآفاق العراض.. أعداد مذهلة .. والنسبة بين الكائن البشريوبين تلك الأعداد تكان تكون معدومة.

ثم يأتي القرآن بعد ذلك – الكتاب الخاتم- ومن بين ركام هذه الضآلات يخاطبه: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ ﴾ الجاثية: ١٣.. فكأنه يجعل من هذا الآدمي الضعيف محوراً لحركة الكون والوجود.

ولذلك فنحن بكل المعايير أمام كائن متفرد عجيب..

في السطور التاليات من هذه الرسالة المتواضعة، نحاول معاً أن نقترب من هذا الكائن.. من أنفسنا.. وبمجهر من مجاهر القرآن، نحاول أن نلتمس الطريق إلى ذواتنا.. نكتشف سراديبها ومنحنياتها في دنيا العجائب والخوارق والآيات.

ونحاول كذلك أن نفهم التكليف من الله لهذا الكائن دون المخلوقات الأخرى، ونسبر غور الآدميين، وما أودعهم الله من قدرات وخصائص، تجعلهم يقودون مسيرة حضارية ومعارك تنموية، تقلب الأرض من صحراء جرداء إلى سندس أخضر ومقام كريم، بل نتلمس عظمة هذا العقل البشري، الذي يطل من تباشير الألفية على آفاق شاسعات، ونخرج من كل ذلك بإننا مطالبون أن تكتشف ذواتنا، وأن نوظفها لما ندبها الله إليه من التحلي بمعالي الصفات، والاهتمامات الكبار، والكمالات.. فتمسنا حينئذ طراوة الوحي المنزل، لنوقظ من أنفسنا ما كان ميتاً، ونميت ما كان حياً، فنورق بعد يباس، ونخضر بعد جفاف، ونسير إلى ربنا سيراً حثيثاً من خلال إثراء الحياة والأحياء، وتقديم النموذج.

والسطور القادمة – أخي القارئ- هي خواطر مترعات ترجع بدايتها إلى فترة أوائل الثمانينات، ونحن طلاب (هندسة) في الدراسات العليا ببلد الله (لندن)، والزمان غض، وعلي برد شباب.

ولقد عدت إلى تلك الأوراق القديمة المبعثرة، فجمعت شواردها، وألفت بين أجزائها، وأضفت إليها ما أفادته التجربة خلال السنوات التاليات. وأكثر ما حفزني إلى إخراجها هو هذه الظاهرة الجهادية التي انتظمت هؤلاء الشباب.. يحتشدون للقاء الله في شوق أخاذ، ولقد بد قُدر لي أن أعيش بينهم لحظات، فكنت أسائل نفسي لماذا يطلب هؤلاء الشباب الشهادة، ويختارون أن يغادروا الدنيا وهم من هم صحة، وعافية، وقوة، وقدرة على الاستمتاع؟؟!

بل ومضـــى بي التســـاؤل لماذا كان الرســـاليون الربانيون ينهجون ســـلوكاً مغايراً وأحياناً غريباً.؟! ماذا اكتشـــفوا..؟؟ وإلى ماذا هداهم البحث في دواخلهم..؟؟ وأي معاني وقيم مركوزة في هذه الدواخل فجرها هؤلاء الربانيون؟

هذه السطور محاولة للحفر في دواخل الذات .. والعثور على الكنز الدفين.

الباب الأول
معركة الاستخلاف تحفظ وتدافع

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ ﴾ البقرة: ٣١

معركة الاستخلاف

في سبيل البحث عن خصائص هذا الكائن الصغير والخطير، والذي عناه الآخر حين قال:

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فإن أول ما يطالعك من معالم في طريق البحث والتأصيل في خصائصه، هذه الآيات من سورة البقرة، والتي تقص علينا كيف تم خلق آدم عليه السلام، وكيف تم استخلافه في الأرض، وكيف تساءلت الملائكة مستفسرة مستغربة عن هذا الكائن.. ولقد اتسع صدر الآيات القرآنية فساقت إلينا كل الرواية بتفاصيلها، حتى الكلمات التي عبر بها الملائكة عن تحفظاتهم تجاه هذا القادم الغريب.. نسمع إلى قول الله تعالى في الآيات وهي تقرر: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠
وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ

هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم
بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا
تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ
إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ
وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ
بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن
رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا
يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾
البقرة: ٣٠ - ٣٨

الآ يات تحكي حد ثاً ومحاورة جرت بين الحق في علديا ئه وبين الملائكة .. (إني جاعل) والتعبير (جاعل) غير التعبير (سأجعل)؛ لأنه أمر نافذ لا شك فيه، وجاعله خليفة.. والخليفة هو الذي يخلفك.. عبارات مختصرة ومفيدة تنفذ إلى ما تريد بأقصر الطرق.. كأنها لغة بلاغات. لقد عرض الحق سبحانه وتعالى الأمر على الملائكة في شكل خبر، أفادهم به وهو الحق المتعالي فتنزل. ولأنه خطاب من اللطيف

الخبير، جاءت العبارات لطيفة. فتساءلت الملائكة وتعجبت: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟!)[٢]

هو نوع من التحفظ الصاخب على خلافة الإنسان في الأرض، وهو كلام يبدي روح تنافس مشروع.. والعجب أن القرآن يتسع صدره فيعكس هذا التحفظ بذات الكلمات والمفردات.. والملائكة في حوارها قد دافعت عن موقفها بمقارنات وشواهد (من يفسد فيها ويسفك الدماء)[١]، ثم مضت (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)[٢]، وهذه المرافعة من الملائكة تضع منهجاً، وتعطي رسالة ذات مدلولات سياسية وأخرى تربوية، تعكس أن المناخ فيه مساحات متاحة للتعقيب والتحفظ بين يدي الملك العلام!. وإذا بالإجابة والتعقيب من الحق سبحانه وتعالى – له الملك- تأتي هادئة مطمئنة، توضح مناخاً لا تجريح فيه ولا تسفيه، وتقرر حقيقة واضحة (قال إني أعلم ما لا تعلمون)[٣]، تذكيراً لهم بخصائص الربوبية، والتي غفلوا عنها في زحام المرافعة. ثم يمضي السياق القرآني.. فينداح اللطف الإلهي في إعداد العدة للرد الحاسم المفحم، وفي إخراج أخاذ، لا تملك إلا أن تسلم فيه للغالب، لعلو الحجة، ونصاعة البرهان.. والآيات استدلت بنموذج

---

[٢] سورة البقرة: الآية ٣٠

[١] سورة البقرة: الآية ٣٠

[٢] سورة البقرة: الآية ٣٠

[٣] سورة البقرة: الآية ٣٠

حي، ذلك أن قرار الأصطفاء لابد أن تصحبه أسباب واضحة تبين كيف استحق آدم هذا الشرف، وبم ناله؟ وماهي الخصائص التي يتمتع بها، وهي معدومة لدى أهل الملأ الأعلى.؟ كل ذلك تم في إخراج عجيب، هو بالطبع رسالة للدعاة تحضهم على ضرورة الحرص على

الطرح وفن الإخراج.. (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضها على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم)[٤].. كان يمكن أن يكون القرار قسرياً، فوقياً لا إخراج فيه ولا فن، ولكنه النسق القرآني.. والرسالة إلينا جميعاً.. كيف وإن كنا على الحق نحاور ونداور، ونعرض بضاعتنا في ثوب مقنع أخاذ (وعلم آدم الأسماء كلها)[٥].. قال الزمخشري:

(علمه أحوالها، وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية).

وتعليم الأسماء هو أسرار الفهم، والاستعداد للتحليل والتمحيص، ولاحظ كلمة (كلها) دلالة على الإحاطة. كأنما أفرغ العلم من الله في آدم بهذه الأسماء، فأحاط بها على التو – والفعل على التو هو من أخص خصائص الربوبية (إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون). وجاء آدم يحمل خصائصه الجديدة، ونادى الحق الملائكة بقوله: (أنبوئني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين)[١] – الخطاب ساخن نوعاً ما..

---

[٤] سورة البقرة: الآيتان ٣١-٣١

[٥] سورة البقرة: الآية ٣١

[١] سورة البقرة: الآية ٣١

وهنا نلحظ أن أدب الملائكة و سلوكهم الشفيف: (قالوا سبحانك لا علم إلا ماعلمتنا أنك أنت العزيز الحكيم)[٢] .. انقياد وتسليم، هما من سمات أهل الملأ الأعلى.

ثم تمضي الآيات:

(قال يا آدم أنبئهم بأ سمائهم فلما أنبأهم بأ سمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غ يب السـ ماوات والأرض وأعلم ما تـبدون و ما كنتم تكتمون)[٣]

ثم أذن لآدم أن يستعرض معلو ما ته، ويجلي مكنو نا ته.. فأنبأ الملائكة بالأسماء.

وي سدل الـ ستار على المـ شهد بهذه الآية الحكيمة: (قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)[٤]

وانظر إلى تنزل الخطاب الإلهي إلى مستوى مداركهم.. (ألم أ قل لكم)[٥].. وهو خطاب فيه لطف ومؤانسة.

لقد بدأ واضحاً تميز آدم عليه السلام على الملائكة بخصيصة القدرة على إدراك الأشياء.. واستحق بذلك الخلافة في الأرض، بل استحق أن يسجد له الملائكة سجود حفاوة، وتوقير واعتراف

---

[٢] سورة البقرة: الآية ٣١

[٣] سورة البقرة: الآية ٣٣

[٤] سورة البقرة: الآية ٣٣

[٥] سورة البقرة: الآية ٣٣

بأ ستاذيته. وهناك ملحظ دقيق في سياق القصة، لماذا قوبل تحفظ الملائكة تجاه خلافة آدم بهذا اللطف؟ وعولج الأمر كله معالجة حوار، وإقناع، و سوق حجج؟ بل شملت الحجج درساً إيضاحياً..؟ لماذا لم يكن قرار الاستخلاف قراراً غير قابل للنقاش، والاستفسار، والموافقة، كما يفعل الرعناء والطغاة من البشر؟؟

تلك رسالة واضحة الدلالة لصاحب أي فكرة يريد أن يطرحها للناس. بل رسالة جامعة لأهل الإسلام والدعاة أن يتحلوا بأدب الحوار، وفن الإقناع.

ثم تمضي الآيات الكريمات من سورة البقرة تحدثنا عن نتائج هذا التميز، وما يترتب عليه من مضاعفات:-

(وإذ قلنا للملائكة ا سجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى وا ستكبر وكان من الكافرين)[1]. بعد أن حمل آدم بين جنبيه هذه الخصائص، كان لا بد من إعلان ذلك في احتفاء مهيب. و جاء الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم توقيراً، وحفاوة، واعترافاً بالأستاذية..

والملائكة قد مُلأتْ إقتناعاً بهذا الكائن الجديد.. ولمست مميزاته وخصائصه من خلال الاستجواب الإلهي، لذلك ما لبثت أن سجدت توقيراً ومحبة له.

[1] سورة البقرة: الآية ٣٤ .

ويبدو أن القرار بذلك لم يكن جماعياً، فقد تفلت مخلوق آخر، واستمر- رغم الحجج والمميزات- في لدده وحججه، خارجاً عن إجماع أهلا الملأ الأعلى، وهو (إبليس)..

والحادثة هي أول تدافع كائنين في تاريخ الخلق .. وإبليس (أبى واستكبر)[٢].. ومضى يقدم اعتراضه أمام الحق سبحانه. ويتسع صدر القرآن فيحكي كلمات إبليس، وصلفه، ويسوق حججه: (قال أنا خير

منه خلقتني من نار وخلقته من طين)[٣].. تمدد سافل لمساحة (الأنا)، وفي ظنه أن النار أعظم من الطين.. وهي أول بوارد العصبية، والتحزب، والتشرذم،

ثم يسدل الستار، ويعيش آدم في الجن في جوار الله تعالى ما شاء الله له (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)[٤].

خلق الله له من يؤانسه: زوجه، ونسبها إليه (زوجك).. دعاهما إلى الأكل الرغد، والنعيم المقيم.. وقيد حريتهما بأمر الشجرة.

ثم كانت الغواية من الشيطان.. صاحب الثأر من آدم.. فوسوس لهما.. وكان إخراج آدم من الجنة إلى دنيانا وأرضنا.

---

[٢] سورة البقرة: الآية ٣٤ .

[٣] سورة القرة: الآية ١٢ .

[٤] سورة البقرة: الآية ٣٥ .

(فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم. قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[1].

تلك كانت في إيجاز معركة الخلق، والهبوط إلى الأرض، والاستخلاف. وهناك محطات جذب في هذا الطرح القرآني، ووقفات لابد منها:

١- هذا الكائن الآدمي كان استخلافه في الأرض نتيجة أخذ ورد وتحفظ، فكأنه جاء إلى الأرض من بين فرث ودم، وأو شكت الملائكة أن تحوز هذا الشرف، وقاتلت في سبيل ذلك .. وهذا الأمر يجعلنا نحن الآدميين نحرص على هذه الخلافة، وخصائص التميز المركوزة فينا، ونوظفها لمعرفة ربنا.

٢- حرص القرآن على حكاية مسلسل تحفظ الملائكة بحذافيره، ويروي عباراتهم، وكذلك اعتراض إبليس وحججه، في رسالة واضحة لنا، عسى أن تتسع صدورنا لمن يخالفنا الرأي. ويحضنا القرآن على إتقان روح الحوا، وفن الإخراج في الحجج والملابسات.

٣- ما جرى لآدم من تعليم الله له الأسماء بغية سياق الحجة الدامغة أمام الملائكة في أمر الاستخلاف هو هدي واضح لنا كيف نتعلم فن العرض لقضية الإسلام، وجلب كل الوسائل الإيضاحية.

---

(١)

٤- خطأ آدم عليه السلام، وأكله من الشجرة التي كانت سبب هبوطه إلى الأرض، يوحي بأن ابن آدم متأرجح في سلوكه مهما كان حظه من القرب.. فهو لا يأمن العواقب والنهايات، فإن آدم وصل مقاماً سجدت له فيه الملائكة، وهذا لم يمنعه من ارتكاب المخالفة. وهذا أمر يعمق شعور الخوف من الله تعالى، فلا يغتر العبد بما يلوح له من إكرام وهداية، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون.

٥- بعد هذه المشاهد التي عرضها القرآن هبط آدم إلى الأرض، وله مع أهل الأرض موقفان:

* موقف مع الملائكة الساجدين له، واعتراف منهم بأستاذيته، وهذا الاعتراف يخالطه ود وحفاوة.

*موقف مع إبليس يبدي فيه البغضاء، والعداوة المستمرة إلى يوم القيامة.

ولذلك كان حصاد آدم عليه السلام وهو ينزل إلى الأرض:

- أحباء يحتفون به.. ويوقرونه.. هم الملائكة.
- أعداء يتربصون به.. هم إبليس وجنوده.

وللشيخ ابن القيم رحمه الله مداخلة جميلة في أمر هبوط آدم إلى الأرض، يحسن أن نختم بها هذا الباب، وقد وردت في كتابه (الفوائد):

(إياك والمعاصـــي، فإنها أذلّتْ عز (اســجدوا)، وأخرجت إقطاع (أسكن). يا لها لحظة أثمرت حرارة القلق ألف سنة. ما زال يكتب بدم الندم سطور الحزن في القصص، ويرا سلها مع أنفاس الأسف، حتى جـــاء توقيع (فتاب عليه). فرح إبليس بنزول آدم من الجنة، وما علم أن هبوط الغائص في اللجة خلف الدرّ صـعود. كم بين قوله لآدم (إني جاعل في الأرض خليفة)، وقوله لك (اذهب فمن تبعك منهم). ما جرى على آدم هو المراد من وجوده (لو لم تذنبوا)، يا آدم لا تجزع من قولي لك (أخرج منها) قلك ولصـالح ذريتك خلقتها. يا آدم لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك، فقد استخرجت منك داء العُجب، وألبستك ثوب العبودية (وعسى أن تكرهوا). يا آدم لم خرج أقطاعك إلى غيرك، إنما نحيتك عنه لأكمل عمارته لك، وليبعث إلى العمال نفقة

(تتجافى جنوبهم). تالله ما نفعه عند معصـيته عز (اسـجدوا)، ولا شـرف (وعلم آدم)، ولا خصـيصـة (لما خلقت بيدي)، ولا فخر (ونفخت من روحي) وإنما انتفع بذل (ربنا ظلمنا أنفسـنا). لما لبس آدم درع (التوحيد) على بدن (الشـكر)، ووقع سـهم العدو منه في غير مقتل، فجرحه، فوضـع عليه جبار (الانكسـار)، فعاد كما كان، فقام الجريح كأن لم يكن به علة)[1]..

---

[1] الفوائد: ابن القيم الجوزية.

بهذا الكم من المعطيات انتهت مرحلة من مراحل آدم عليه السلام، ونزل من جوار الله وآفاق الملائكة في الجنة إلى الأرض.. ليلد النسل

ويكدح.. ويحمل خصائصه التي أودعها فيه الحق سبحانه وتعالى يوم عجن عجينته.. فلنقترب من هذه الخصائص في بابنا الثاني.

الباب الثاني
خصائص الإنسان

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ التين: ١ - ٦ **الخصائص والمقدرات**

مدخـــــــل:

هذا الكائن الآدمي، والذي تابعنا مسيرته، ومعركة استخلافه في الأرض، وهبوطه من جوار الله إلى دنيانا.. نفرد هذا الفصل للاقتراب منه أكثر، لمعرفة خصائصه، وما أودعه الله من قدرات، وذلك كله من خلال قراءة متأنية لنصوص قرآنية حفلت بالخصائص والموا صفات الآدمية، ونختار النصوص التالية:

١- قال تعالى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الحجر: ٢٨ - ٢٩

٢- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ الرحمن: ١٤ - ١٥

٣- وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ص: ٧١ - ٨٣

٤- نحن أمام نصـوص قرآنية تتحدث عن المكونات التي تخلق منها هذا الآدمي القادم الجديد.

فهو صلصال.. ومن حمأ مسنون.. ومن طين.. ومن فخار.. وهي مفردات تعود معانيها جميعاً إلى الطين وملحقاته كما هو واضح مما يلي:

(أصل الصلصال تردد الصوت من الشيء اليابس، و سمي الطين الجاف صلصالا)[1].

والصلصال كذلك هو الطين اليابس ما لم تمسه النار، فإذا مسته فهو حينئذ فخار.

- الحمأ المسنون: الحمأ والحمأة هو الطين الأسود المنتن، (الزبالة) كما في لسان العرب[2].

---

[1] مفردان القرآن : الراغب الأصفهاني.

[2] لسان العرب: ابن منظور.

ونبدأ بالآيات من صـورة (ص): (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)[٣]

هذا المقطع يبدأ بإعلام إلهي واضـح الدلالة للملائكة بأنه تعالى اختار أن يخلق خلقاً بالكيفية والتدرج التاليين:

١- (خالقٌ بشراً من طين):

هو بشـر في تكوين جديد.. وهو طين. والخلق هو الإيجاد من العدم. وهذه من دلالات القدرة الإلهية، وبداية الاحتفاء بهذا الكون.

٢- (فإذا سويته):

بعد مرحلة الخلق والإيجاد من العدم، تأتي مرحلة التسـوية.. والتسوية هي أشبه بعملية التشطيب والتهذيب بلغة المهندسين، ليأخذ المخلوق شكله ورونقه.. ولاحظ التعبير القرآني (سويته) .. نسب الله الأمر إليه مباشـرة، ولم يوكل هذه التسـوية إلى إدارات من جنوده الذين يملأون آفاق الأرض والسـموات (ولله جنود السـموات والأرض)[١] وفي ذلك مافيه من الحفاوة والاهتمام بهذا المخلوق الكنود الغافل. ولاحظ كذلك ورود الحرف (الفاء)، وهو يفيد المتابعة والموالاة، والفعل على التو.

---

[٣] سورة (ص) الآيتان ٧١ – ٧٢ .

[١] سورة الفتح: الآية ٤ .

٣- (ونفخت فيه من روحي).

وهي المرحلة الثالثة وورود الواو قبلها يفيد شـيئاً من التراخي، لحكمة يعلمها الله.. وتمضي كذلك الإضافة إلى الله مباشرة (ونفخت)، ومن (روحي) بياء الإضافة وهي تفيد التبعيض أيضاً.. فإنه لم يقل (نفخ فيه الروح)، أو (نفخت فيه الروح).

وهنا يبرز سـؤال هام.. ماهذه الروح؟! والتي وردت بهذه الإضـافة (روحي)؟ أترا ها الروح نفسـها التي يتمتع بها الحيوان.. الأسـد، والحمار، والخنزير، والقطط؟!

(١) الروح ومعانيها:

المبحث يقودنا إلى أن نسـتعرض كلمة (الروح) في القرآن، والتي وردت لتعطي دلالات شتى، منها:

١- وردت بمعنى جبريل. قال تعالى: (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون)[٢].

٢- وردت بمعنى جبريل في قوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها)[٣].

٣- وردت أيضـاً بمعنى جبريل (قل نزله روح القدس من ربك بالحق)[١].

[٢] سورة النبأ: الآية ٣٨.

[٣] سورة القدر: الآية ٤ .

[١] سورة النحل: الآية ١٠٢ .

٤- وردت بمعنى عيسى عليه السلام (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه).[٣]

٥- وردت كذلك بمعنى الوحي (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا).[٤]

ومن المستبعد أن يكون (الروح) هو إجراء الحياة الحيوانية في جسد آدم، و سريانها كما تسري الحياة في أجساد الحيوان، وذلك أن (الروح) لم يذكر في القرآن بهذا المعنى قط، ثم إن الحياة الحيوانية أمر مشترك بين الإنسان والحيوان، وليس فيها ما يميز الإنسان بهذه الصورة العظيمة ويجعل الملائكة تسجد له.. وتعترف بأستاذيته. وتوقره، وتحتفي به.

كذلك هناك في حديث الشفاعة، توضح أن الروح هذه شيء آخر، وهو حديث رواه صاحب الصحيح البخاري: (أنت أدم أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه.)[٥]

ويبقى السؤال الحائر: ما المقصود بالتعبير القرآني: (ونفخت فيه من روحي)؟؟[٦]

المتتبع للآية قبل النفخ، يجد أن آدم عليه السلام قد مر بمرحلتين هامتين (خلق+ تسوية)، ثم تهيأ بعد ذلك لمرحلة (ونفخت)..

---

(٣) سورة النساء: الآية ١١٧ .

(٤) سورة الشورى: الآية ٢٥ .

(٥) الحديث: صحيح البخاري.

(٦) سورة (ص): الآية ٧٢ .

ولقد ذهب العلماء مذاهب شــتى في تفســير هذه (الروح)، تباينت مشــاربهم، ومدارســهم، ومشــاهدهم. وأكثر ما اطمأننت إليه هو ما ذهب إليه أســتاذنا البهي الخولي، وهو (أن الحياة في آدم لم تكن بحكم تكوينه حياةً حيوانية صرفة، إنما كان يلامسها سر لطيفة قدسية أمد الله بها كيانه، فكانت سبب ما يعزي له من كمالات)[1].

وبمعنى آخر فإن آدم عليه الســلام انغرس فيه الاســتعداد لمعالي الصــفات، وخاصــية التجوهر التي اختلطت مع الخاصــية الطينية، ولذلك رزق القدرة والاســتعداد لمعرفة الله تعالى، والســير إليه.. وأصــبح قلبه بذلك مؤهلاً لتقبل نور الهداية، وقبس اليقين، يكاد زيته يضئ ولو لم تمسسه نار، فإذا مسته النار فهو نور على نور.

(٢) إبليس وبرنامجه:

نمضي نكمل المشوار في سورة (ص) فنقرأ:

((فسجد الملائكة كلهم أجمعون(٧٣) إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين(٧٤) قال يا إبليس ما منعك أن تســجد لما خلقت بيدي اســتكبرت أم كنت من العالين(٧٥) قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين(٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم(٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين(٧٨)))[2].

---

[1] آدم- للبهي الخولي.

[2] سورة (ص): الآيات من ٧٣ – ٧٨ .

يتكرر مشـهد الرفض الإبليسـي، ويعكسـه القرآن في صـور شـتى، والقارئ للآيات التالية يستخلص عبراً عراضاً:

قال تعالى (قال يا إبليس مالك ألا تكون مع السـاجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون).[٣]

اعتراض و شعور (بالأنا) غليظ، وهي ممار سة تتم على يد مخلوق عاش في مناخ الملائكة، ويعتبر عضـواً في جماعة الملأ الأعلى، وكادراً متقدماً. فيأتي القرار الإلهي أمام هـهذه العنهجية التي مارسـها أحد عمالقة وقيادات الملأ الأعلى: (قال فاخرج منها فإنك رجيم(٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين(٧٨))[٤].

قرار حا سم .. ا ستحقه إبليس لأن م ساحة الأنا ملأت حناياه حتى حجبته عن مكارم الآخرين، ورأيهم، ورؤاهم، فأصـبح لا يرى إلا نفسـه. وهو أشـبه برجل داخل غرفة من المرايا، أينما اتجه لا يرى إلا نفسه.. وهي من الآفات التي تعترض سبيل السائرين إلى الله.. ثم انظر إلى هذا المطلب الإبليسي.

(قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون. قال: فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم)[١]

---

[٣] سورة (الحجر) : الآيتان ٣٢ – ٣٣ .

[٤] سورة (ص): الآيتان ٧٧ – ٧٨ .

[١] سورة الحجر – الآيات ٣٦- ٣٧-٣٨ .

وعندما ضـــمن إبليس البقاء، طرح أمام الحق ســبحانه برنامجه للتضــليل وأخذ الثأر من هؤلاء الآدميين، فأقســم في ســورة (ص): (فبعزتك لأغوينهم أجمعين)، أقسم بعزة الله، وهو دليل على معرفة ما.

ثم تمضــي ســورة (الحجر): (قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين)[٢].

طرح برنامجه وخططه، ويتسع صدر القرآن فينقل عنه هذا البرنامج تبصــرة لنا.. أنه ســيأتينا ويحيط بنا من كل جانب (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شــمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين).[٣]

ثم يسدل الستار بهذه البشارة الربانية، وهي سياج يحيط بمواكب المؤمنين الرساليين.. (قل هذا صراط علي مستقيم.إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من أتبعك من الغاوين)[٤].

والشــاهد في كل ذلك أن إبليس ما أخرجه من الجنة عدم علم ولا عدم معرفة، بل كان مملوءاً بذلك. ولكن أخرجه إعجابه بنفسه، وتمدد (الأنا) فيه تمدداً أعماه عن رؤية ماحوله .. أعماه عن ســماع فكر الآخرين ورأي الآخر.. وهي بذرة (الجبروت).

[٢] سورة الحجر – الآيتان ٣٩ – ٤٠ .

[٣] سورة الأعراف: آية ١٧ .

[٤] سورة الحجر: الآيتان ٤١– ٤٢ .

وأذكر كلمة أوصى بها سيد الطافة (أبوالقاسم الجنيد) رضوان الله عليه تلميذاً من تلاميذه، قال له: (يابني لا أذاقك الله طعم نفسك، فإنك إن ذقتها، لم تذق بعدها خيراً أبداً).[1]

ذلك سر الكثير من أمراضنا الاجتماعية.. بل هو سر الكثير من الانتكاسات لمسيرة حركة الإسلام، والانحرافات التي اعترت المسيرة، وفرقت جموع أهل القبلة طرائق قددا.

(٣) خلقت بيدي:

نعود إلى سورة (ص)، لنرى كيف يتسع صدر الآيات القرآنية لرعونات إبليس، فتنقل كل ما دار بينه وبين خالق- وهو الحق المتعالي القيوم- وانظر إلى مفردات هذا النقاش، عسانا نتأسى به، اتساعاً في الصدر، وأمانة في الرواية. وأهم ما يلفت النظر في هذا الجزء هو قول الحق سبحانه وتعالى: (لما خلقت بيدي)[2].. كأنما تعرض الآيات تفاصيل كيفية الخلق. لقد مرت بنا وتدرج الإيجاد الآدمي:

خلق + تسوية + نفخ

والآن عادت الآيات تفكك تعبير (خلق) إلى جزئيات، فتخبرنا أن الخلق تم بيدي الله.. بكلتا يديه – تعالى الله عن التشبيه- وهي محطة هامة، تبين مدى حفاوة الحق بهذا الكائن. ولكي ندرك خبايا هذه المحطة نعود إلى القرآن لنقرأ مشهدين:

---

(١) أيقاظ الهمم: ١/ ١٢٦ ابن عجيبة الحسني.

(٢) سورة (ص): الآية ٧٥.

١- المشـــهد الأول: قول الله تعالى: (تبارك الذي بيده الملك)[٣]. بمعنى أن عالم الملك كل بيد الله (يد واحدة). وعالم الملك هو العالم المشهود المحسوس.

٢- المشـــهد الثاني: قوله تعالى: (فسـبحان الذي بيده ملكون كل شـــيء)[٤]، بمعنى أن عالم (الملكوت) أيضـــاً بيده (يد الوا حدة). والملكوت عند بعضـــهم: هو عالم الروح والغيب، والمُلك عالم الشهادة.

كل هذه العوالم بيده الواحدة.. وعندما يتناول خلق الإنســـان، هذا الآدمي، يقرر الحق (بيدي)، كلتا يديه.

كأن هذا الآدمي هو من الأهمية بمكان، ومن العظمة بمكان. وكأنما هو من طرف خفي يجمع بين خصـــائص الملك والملكوت بحكم تكوينه (طين+روح). لقد اهتمت الآية بتفكيك مادة (خلق)، لتحكي لنا كيف تم الخلق، ولتعزيز هذه المقولة يروي الإمام أحمد في مســـنده حديثاً نبوياً ما معناه: **(حاجت الملائكة ربها، قالوا يا ربنا قد جعلت الدنيا لبني آدم، فاجعل لنا الآخرة. قال: حاشـــا أن أجعل خالص من خلقته بيدي كمن قلت له كن فكان)[١].**

(٣) سورة الملك: الآية ١ .

(٤) سورة يس: الآية ٨٣ .

[١] مسند الإمام أحمد.

ولتقريب المعنى بمثال محسوس، فإن الفرق بين أن تصنع شيئاً بيديك وبين أن تستعمل فيه الآلات والإلكترونيات واضح جلي في مستوى تجويد البضاعة، و سعرها. وهو أمر معلوم في عالم الصناعة.. والفرق واضح بين الصناعات اليدوية المجودة، وإنتاج المصانع. (HAND MADE).

وتمضي الآيات في سياقها حتى تنتهي بطرد إبليس من الجنة، وقد امتلأ عداوة وحقداً على الآدميين. لأنه أخرج من الجنة بسببهم، وهي عداوة مستمرة إلى آخر الدنيا. ولقد ثأر إبليس لنفسه، فتسلط على آدم، وكان سبب إخراجه من الجنة إلى الأرض، انتقاماً لنفسه منه.

(٤) الصلصال والتشابه:

نعود إلى الآيات التي تتحدث عن مادة خلق الآدمي، وهي مفردات الصلصال، والفخار، والحمأ.

ولعلنا نلاحظ أن هناك شبهاً كبيراً بين هذه المفردات وبين صفات الآدمي المجبول عليها:

١- فالآدميون في غموضهم،، وما تنطوي عليه بواطنهم من أحقاد وأمراض، وإحن، أشبه ما يكونون بالطين اللازب المنتن، والحمأ المسنون. يلبس أحدهم مزركش الثياب، ويريك وجهاً باسماً، ولكنه يمور من الداخل بإحن وأحقاد. كما يقول شوقي:

ولو صوروا من نواحي الطباع   توالوا عليك سباع الصور

فيا رب وجه كصافي النمير   تشابه حامله والنَمِرْ

وقول الآخر:

ولابد من أن ينزع المرء مرة   إلى الحمأ المسنون ضربة لازب

٢- كذلك هناك شبه بين الصلصال والإنسان، فإن الصلصال معروف بقلة التماسك، وبصوته، وجلجلته. وهذا يشابه خفة الإنسان، وحبه للظهور، وبا ستعداده لأن يظهر بأكثر من حجمه، ليصحح نسبة إلى هذا الصلصال. حتى جرس الكلمة (الصلصال) يوحي بذلك الفارغ من المعنى.

قال أبوماضي:

نَسَي الطينُ سَاعةً أَنَّهُ طين   فَصَالَ تيهاً وعَربَد

ولذلك كان الآدميون أشبه بالبركة الساكنة، يغريك صفاء سطحها، فإذا حركتها رياحٌ هوجٌ، فارت وا ستطارت، وأخرجت ما في باطنها من خبائث، وطحالب، وتماسيح، وأذكر كلمة لي منذ زمان:

وقال لي البحر في سخرية أبداً   ما أنت في لغة الأكوان غير أنا

تعيش في قاعنا الديدان زاحفة   ويخدع الناظر الموهوم رونقنا[1]

---

[1] قصيدة (رحلة الشرق): من ديوان أنفاس العشية للمؤلف.

الإنسان بين مستنقع الشياطين وآفاق الملائكة:

نزل هذا الآدمي كما قرأنا من عليائه في خضراء الجنة إلى حضيض الأرض وقد تاب الله عليه... نزل يحمل هذه القدرات والمواصفات والخصائص. وهو مزيج من ظلام الحمأ المسنون ونور النفخة الربانية.

وحين نزل إلى الأرض وجد أنه محاط بثلاث ممالك محسوسة: مملكة الحيوان ومملكة النبات ومملكة الجمادات وعوالم أخرى لطيفة هي مجموعة الملائكة والجن والشياطين.

استشعر أنه أمام معسكرين لكل معسكر قدراته ومواصفاته:

(أ) معسكر الشياطين:

وهذا المعسكر تربطه به ثارات قديمة وتوعُد يقوده إبليس وهو يجتر مراراته ضد الآدميين ويحرص على أن يسوقهم إلى الضلال ويخرجهم من الجنة وطريقها كما خرج بسبب أبيهم آدم من الجنة.

(ب) معسكر الملائكة:

وهي أجسام نورانية يجمع بينها وبين الآدميين ودٌّ قديمٌ بدأ في خضراء الجنة وستمر في رحلة الحياة.

وحصاد التجربة البشرية على وجه الأرض وعبر التاريخ هو مسلسل تأرجح للآدميين بين المعسكرين... وتذبذب بين النجدين.

نحاول أن نلتمس سـمات كل معسـكر.. ونتعرف على سـلوك هذا الآدمي نحوهما.

(أ)الإنسان ومستنقع الشياطين:

كلمة شـيطان ترجع إلى أصـل الفعل (شـطن) بمعنى تباعد ومنه قولهم (بئر شطون) وشطنت الدار إذا بعدت.

وقيل أنها من الفعل (شاط، يشيط) إذا ا شتد غضبه والشيطان هو مخلوق يتميز بقدرات عالية ومواصـفات اسـتثنائية وإليه يرجع كل حصاد الشر في التجربة الإنسانية منذ أن خلق الله البشر... وهو بذلك ذو إمكانيات مهولة:-

(أ) طبيعته:-

الشـيطان هو فصـيلة من فصـائل الجن (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه). وهو مخلوق من نار قال تعالى: (خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار)[1].

والمارج: لهب صاف لا دخان فيه.

وقال تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم)[2].

---

[1] سورة الرحمن: الآيتان ١٤ – ١٥ .

[2] سورة الحجر: الآية ٢٦ .

أكد القرآن في آيات كثيرة هذه الحقيقة الجوهرية.

وكما لمسنا من قبل بعض مواقع المشابهة بين الطين الذي هو أصل الإنسان وبين طبائع الآدميين نلمس كذلك هنا بعض وجوه الشبه بين النار وطبيعة اشيطان.

فالنار حارقة ملتهبة شديدة الحركة.. وهي تشب وقَادة وهذه ضمن مواصفات الشياطين وطبائعهم.

وللشياطين قدرة على التشكل بالأشكال القبيحة المرعبة... التي تناسب هذه المواصفات وقدرة على التنقل.. وطي الأرض والمسافات الشاسعة على وجه البسيطة وفقوها مما لا تسع هذه الرسالة لطرحه.

(ب) موقفه مع الإنسان:

هو العدو الأول والأزلي للآدميين كما دلت آيات القرآن في كثير من مواقعها:

- قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ فاطر: ٦

- في قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ يس: ٦٠

- في قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩

- في قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ الكهف: ٥٠

- **(ج) كيف طرح برنامجه لغواية الآدميين وصـــدهم عن منهج الله؟**

هذا المخلوق الشـيطان يمتلك قدرات فائقة عجيبة وجرأة شـديدة وفي مهرجان السجود لآدم والذي شد منه ولم يسجد نقل القرآن الحوار الذي دار بين الحق – سـبحانه- وبين مخلوقه الشـيطان وهو حوار يعكس سعة الحق.. وضيق عطن الشيطان وحقده ووضاعته.

في سورة الأعراف نقرأ هذه اللوحة:

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ الأعـراف: ١١

ينتهي المقطع الأول هاهنا... ثم يستجوبه الحق سبحانه:

قال: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك؟؟

فيجيب إبليس في جرأة وسـوء فيهم (قال: أنا خير منه خقلتني من نار وخلقته من طين)... وفي ظنه أن النار أشـرف من الطين... فقد غلبت عليه عصـبيته لجنسـه وغلب عليه خلق الاسـتكبار ووهم الا ستعلاء فكانتا سبب خروجه من الجنة فصدر القرار الإداري (قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين)

أخرج من الجنة لأنها دار أرباب العبودية وأهل الأدب مع الله ولن تكون أبداً مأوى للطغاة والمستكبرين.. خرج الشيطان صاغراً ولكنه تشبث وخاطب ربه (قال انظرني إلى يوم يبعثون).

طلب أن يمد له في عمره إلى قيام الساعة.. حتى يتمكن من الانتقام من هذا المخلوق الجديد المميز... ومن هنا بدأت العداوة، فاستجاب الحق لطلبه لحكمة يدخرها الله ويعلم بها ولله في خلقه في كونه حكم وشئون منها ما نعلمه ومنا ما لا نعلمه إن الله على كل شيء قدير.

وتستوقفني آية أخرى في سورة (ص) تعكس إصراره وفيها يقسم أغلظ القسم ويقسم بمن؟ يقسم بعزة الله ربه

(فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين).

واحتاط لنفسه حين أقسم .. حيث استثنى عباداً لله مخلصين هو لا يستطيع أن يخترق ساحاتهم.

وانظروا إليه وهو يعرض بعض إدراكه لقدر ربه (فبعزتك) يعلم أن ربه عزيز وأنه يقسم به...لا بغيره وهي إشارة عجيبة.

هذا الحوار يعكس شيئان من خصائص إبليس ومواصفاته.. وتصميمه فهو مع إدراكه لعزة ربه قد باعدت بينه وبين ربه هذه العنهجية و هذه (الأنا) المتمددة فيه وهي ظواهر قاطعة عن الله. ومخلوق يطر برنامجه بهذه الثقة و هذه الجرأة لا بد أن يكون له من القدرات ما يدفعه لهذه الثقة.

ولقد اتخذ إبليس عنصر (التزيين) عنوا ناً لحركته... هو يملك القدرة على تزيين الباطل ليكون حقاً... فيعرضه براقاً جاذباً، وأشار القرآن إلى خاصية (التزيين) هذه في أكثر من موقع من كتاب الله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ الأنعام: ٤٢ - ٤٣

وفي قصة بلقيس قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ النمل: ٢٤

فالتزيين والتلبيس ... هما من أدواته الكبيرة بحيث يختلط على الإنسان أن يفرق بين الحق والباطل ولذلك جاء الدعاء المأثور (اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ولا تجعله متشابها علينا فنتبع الهوى) والضبابية هي من أكثر المعوقات في سبيل معرفة الحقائق، وقد ابتكر الشيطان المداخل الكثيرة التي يقود بها البشرية إلى الضلال ولقد عقد الإمام الغزالي في كتابه الجامع (إحياء علوم الدين) في الجزء الثالث (ربع المهلكات) فصلاً عن مداخل الشيطان يمكن مراجعتها في ولكنني أنقل عنه تلخيصاً فقد لخص مداخل الشيطان من خلال هذه المحاور:

١- الغضب والشهوة: والغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان ولهذا عندما يغضب الإنسان يلعب به الشيطان كما يلعب الصبية بالكرة.

٢- الحسد والحرص: مهما كان العبد حريصاً على كل شيء أعماه حرصه أو أصمه.

٣- البخل وخوف الفقر: فإن ذلك يمنع الإنفاق والتصدق.

٤- التعصب للمذاهب والآراء: والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء.

٥- الشبع من الطعام: شبعاً فيه إسرافٌ فإن الشبع يقوي الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان.

٦- الإسراف في التزيين: من الأثاث والدار والثياب.

٧- العجلة وترك التثبت: في الأمور كما في الحديث (العجلة من الشيطان والتأني من الله).

٨- سوء الظن بالمسلمين: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم).

وهي مداخل عَنّتْ لشيخنا الغزالي حسب زمانه.. ويقيني أن هناك أبواباً كثيرة ابتكرها الشيطان واستخدمها مع مرور الزمن وتطور الحياة.. فليتابعها المدقق الحصيف فإنه سيظفر بمداخل جديدة مبتكرة.

بدأ إبليس بهذه المواصفات والمداخل حركته في الغواية فإلى أي مدى نجح في تحقيق هذه الأهداف وهذا البرنامج من واقع التجربة التاريخية؟

غواية آدم كانت أول غواية:

تســـلط إبليس على أبينا آدم... وعزم على الثأر منه وعلى عجل ... فكان خروج آدم من الجنة بســـبب إبليس وهو أول نجاح يصـــيبه في برنامجه المطروح.

ولقد ســـاق القرآن لوحة موحية تحكي كيف تمت هذه الغواية قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ الأعراف: ١٩ يحدثنا القرآن عن ما كرم الله به آدم وزوجه (كلا منها رغداً حيث شئتما) وكان الأمر الإلهي واضـــح الدلالة وفي جملة قاطعة مقيدة (ولا تقربا هذه الشـــجرة) ومع الأمر الإلهي هذا التعليل تلطفاً بهما .. وإن كانت أوامر الله أحياناً لا تعلل (فتكونا من الظالمين).

وجاء دور إبليس في أول تحريض وبادرة له (فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري من ســـوآتهما وقال: ما نهاكما ربكما عن تلكم الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.).

جاء في خفاء وخفوت يوســـوس ويهمس.. لأن التآمر والخديعة لا يتمان في العلن... والضـــوء ... ثم أغراهما... بوهم الملك والخلود والآدميون جبلوا على حب السلطان والخلود وهما من مقومات الجاه، والجاه لا يزهد فيه الإنســـان ما دام حياً وفي الأثر (آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرئاسة)...

ولقد وصف الدكاترة زكي مبارك شيخ المعرة حين تكلم عن زهده في الحياة وإعرا ضه عنها فقال: (لقد زهد شيخ المعرة في كل شيء إلا الجاه فإنه كان حريصاً عليه).

وهي صـيغة تلازم البشـر وتدغدغ أحاسـيسـهم وإبليس مخلوق يعرف خـ صائص الآدميين ... ويعرف موا ضع الهـ شا شة فيهم فدخل على قلب آدم من هذه البوابة وهي بوابة هشة.. ثم مضى إبليس وأقسم وأغلظ القسـم (وقاسـمهما إني لكما من الناصـحين) ودلاهما بغرور، حتى أكلا من الشـجرة الممنوعة وارتكب المعصـية فكانت سـبباً لخروجهما من الجنة بعد أن غفر الله لهما وتاب عليهما.

وهذا أول اختبار لبرنامجه في داخل خضراء الجنة.

ونزل إبليس إلى الأرض.. مـعه قدرا ته وجنوده وفهـمه لطـبائع الآدميين في كل زمان ومكان... نزل وهو يمارس في عبقريته وإدراك واسـع حيله ... وأحاييله ... وتزيينه وإبداعاته الشـريرة والآدميون يقعون فيها من غير تحسـب فكان حصـاد البشـرية من الإرتماء في أحضان الشيطان كبيرة والتجربة والتجربة الإنسانية مليئة لعلنا نختصر منها بعض النماذج:

(١) أبناء آدم: -

وأول غواية على وجه الأرض كانت قصة (قابيل وهابيل) المعروفة والتي حكاها القرآن حين قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ المائدة: ٢٧ - ٣٠

وتوالت برامج إبليس في سوق البشر إلى الضلال وأصبح هو محور الشر وتجلى شره في كثير من النماذج ومن أبرزها نموذج فرعون وموسى وطغيانه السياسي.. واستعباده لقومه (فاستخف قومه فأطاعوه).. وكيف وصل به الوهم أن أدعى الألوهية (فقال أنا ربكم الأعلى) ونموذج قارون وتوالت هذه الظواهر الفرعونية والقارونية وتكررت على ممر الأزمنة. حتى أصبح معالم للطغيان.. وأصبحنا نسمع في زماننا عن الآحادية في محاور السياسية والاقتصاد.. وألا صوت إلا صوت واحد.. وفهم واحد وكل ذلك يقف من وراءه البرنامج الإبليسي ليصد الناس عن سبيل الله وسبيل المعرفة بالله تعالى فتحرم البشرية شرف المعرفة الإلهية وشرف الإيمان واليقين والتوكل.

ولا ننسى أن هناك قلة هي تعض بالنواجذ على طريق الحق ولقد اعترف إبليس وأقر بعجزه عن غوايتهم (إلا عبادك المخلصين).

ولقد عرض القرآن لوحة مؤثرة عن هؤلاء المؤمنين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠١. والآيات فيها بشارة كثيرة لمعسكر المؤمنين:

١- فالشيطان يمسهم مساً ولا يمسك بتلابيب قلوبهم.

٢- وهو يمر بهم لمحة (طائف من الشيطان) يلقي بو سوا سه ثم يهرب.

٣- ويعصمهم من ذلك (تذكروا) وليس ذكروا فقط والتذكر هو مبالغة ي الذكر.. فإذا بهم بعد التذكر وقد فتحت بصائرهم وعلموا مكايد الشيطان واتخذوا الساتر منها وانتصروا لمنهج الله ومنهج رسوله.

والقرآن يشدنا إلى النهايات المخزية لبرنامج إبليس فيعرض مشهداً من مشاهد القيامة... وقد تبرأ إبليس من الذين أغواهم بعد أن وعدهم في الدنيا... وهي لوحة آسية يبينها القرآن بها إلى مقال إبلي ومنهج إبليس:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٢ ــ ٢٣

المسرح لهذه الآيات هو عر صات يوم القيامة.. يوم النتائج، ويوم الدهشـــة..ويوم الذهول .. وقد قضـــى الله في عباده بالحق.. فريق في الجنة وفريق في السعير.

ووقف الشـــيطان يدلي باعترافاته فإن ذلك يوم الاعترافات يدلي بها على مرأى ومســـمع من الذين أضـــلهم وأغواهم (وقال الشـــيطان لما قُضـــي الأمر أن الله وعدكم وعد الحق).. (ووعدتكم فأخلفتكم) .. لم استطع أن أوفي بما وعدتكم به لأنه كان تلفيقاً وكذباً صراحاً.

ثم يعلن تبرؤه .. وتملص من هذه النتائج (و ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فا ستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنف سكم) ثم يهتف (ما أنا بمصـرخكم ولا أنتم بمصـرخي) أي لا أسـتطيع إنقاذكم ولا تستطيعون إنقاذي.

ثم ينجلي الموقف عن اللبن الصـــريح وعن الحق الذي لا لبس فيه (إني كفرت بما أ شركتموني من قبل) ثم تقرر الآيات (إن الظالمين لهم عذاب إليم) ويعرض القرآن مشهداً آخر للمرابطين في سبيل الله والذين استجابوا لبربهم وقمعوا الشيطان وخالفوه.

(وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصـــالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم. تحيتهم فيها سلام)

صـــورتان متباينتان تمام التباين.. صـــورة لصـــراخ وعويل وتنكر... وبراءة .. ومغالطات.

وصــورة ســخية رخية للمؤمنين وقد أدخلهم ربهم جنات النعيم ورضــي عنهم.. وأذن لهم بالإقامة في خضــراء الجنة ... تحوطهم الحفاوة والسلام.

(ب) الإنسان وآفاق الملائكة:

والمعســكر الآخر الذي وجده الآدميون عند نزولهم الأرض هو معســكر الملائكة وهم أجســام نوارنية شــفيفة.. نشــأت بينهم وبين الآدميين معرفة قديمة واتصال.. نتأمل في تداعيات هذه العلاقة:

(١) من هم الملائكة:

هم أجســام نورانية خلقت من نور ولها القدرة على التشــكيل بالأشكال الجميلة وسرعة على التنقل كذلك وهم مكرمون.

خصائص الملائكة:

١) صلتهم بالله:

- تقوم هذه الصــلة على الطاعة لله والانقياد له انقياداً كاملاً ومن مواصــفاتهم أنهم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ ﴾ التحريم: ٦ –

- وهم حملة عرش الرحمن قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧ ﴾ الحاقة: ١٧ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ غافر: ٧

- وهم دائمو العبادة والتسبيح لله تعالى.. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ الصافات: ١٦٥ - ١٦٦

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠٦.

٢) صلتهم بالأنبياء ورسل الله:

الملائكة هم سفر الله تعالى إلى رسله يحملون إليهم رسالات الله تعالى وتلطيفاته لهم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ عبس: ١١ - ١٦

٣) صلتهم بالقرآن الكريم:

حملوه وبلغوه إلى رسول الله ممثلاً في سيدنا جبريل عليه السلام قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤

فهو روح.. وروح أمين حمل هذا الكتاب وتنزل به على قلب سيد الأولين والآخرين وهو قلب تأهل وصمم لتحمل تجليات هذا التنزيل و كذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ القدر: ١ - ٥

٤) صلتهم بجماعة المؤمنين:

هي علاقة نصرة ومحبة ففي أيام السلم يشهدونهم وهم يتلون قرآن الفجر قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ الإسراء: ٧٨ بل يشـــهدون مجالس دروســـهم وذكرهم (ما جلس قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله إلا نزلت عليهم الســكينة وغشــيتهم الرحمة وصـــلت عليهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده) وفي أيام الجهاد والحرب ينزلون لنصـــرتهم كما حدث في حنين وفي غزوة بدر الكبرى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ آل عمران: ١٢٤ - ١٢٦

٥) صلتهم بالبشر عموماً:

بدأت هذه العلاقة بمهرجان الســجود والذي أُمرت به الملائكة فيه بالسجود لآدم كما مر بيانه لفي أول هذه الرسالة واستمرت العلاقة مع مسيرة الآدميين طيلة حياتهم وبعد مماتهم:

- فعندما يولد الطفل يوكل به حفظة من الملائكة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ الأنعام: ٦١. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ الرعد: ١١

- وعندما تمضي به الأيام ويبلغ الحلم يوكل به ملكان يسجلان ما يعمل.. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ق: ١٧-١٨

- وعندما يدركه الموت تأتي ساعته يقبض روحه نفرٌ من الملائكة ورسل الله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الأنعام: ٦١ - وعندما يبدأ رحلته إلى الدار الآخرة وفي أول منازلها وهي القبر... يأتيه ملكان يستوضحان من الأشياء الأساسية التي تعطيه هويته وعقيدته في دار البقاء إما أن كان من أهل السعادة أو أهل الشقاء (منكر ونكير) وعندما تكتمل حياة هؤلاء الصالحين.. ويحين أوان قدومهم على الله تعالى تحدثنا سورة (فصلت) عن مشهد آثر للوداع والاستقبال لهؤلاء الصلحاء من هل القبلة تعكس عمق هذه الأواصر قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ فصلت: ٣٠ - ٣٢

هذا المهرجان استقبال فريد من نوعه... يستقبل به الصالحون من عباد الله وهم يودعون هذه الفانية ... يذهبون إلى حياة ونعيم مقيم.. (أن لا تخافوا ولا تحزنوا) ثم يبشرونهم بعد ذلك (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون).

ثم يطلقون هذه المعلومة (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة). هي عناية مستمرة كانت في الدنيا. أيام العنت والتعب والشقاء ثم استمرت إلى الدار الآخرة.

ثم يقررون (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون). ثم هي بعد ذلك (نزلاً من غفور رحيم).

- ويوم يقوم الناس لرب العالمين في مشهد الحشر... وتتضح مواقع الناس ذلك فريق في الجنة وفريق في السعير... يقوم على كل من أبوب الجنة والنار ملائكة حفظة وحراس يستقبلون جماهير الوافدين إلى كل باب وهم منفعلون مع هؤلاء القادمين كما يصور القرآن:

١- حفظة جهنم وحراسها:

قَالَ تعَالَى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ الملك: ٨ - ١٠

نرى هنا لوماً وتقريعاً من الملائكة لهؤلاء الوافدين إليهم من سكان جهنم والذين يقرون لي خضوع (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) ثم يختم المشهد (فسحقاً لأصحاب السعير).

وفي لوحة أخرى في سورة الزمر يعرض القرآن مشهد أهل النار وقد سيقوا إلى جهنم قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ ﴾ الزمر: ٧١ - ٧٢

صورة أيضاً من الاستقبال الفاتر أيضاً والنقد والتقريع تمارسه الملائكة من حفظة جهنم وهي تستقبل هؤلاء الكافرين، ثم يختم المشهد .... (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين).

٢- حفظة الجنة وحراسها:

والصورة المقابلة لجنات الله تعالى التي أعدت للمتقين... والملائكة من حراسها يستقبلون الصالحين من عباد الله في حفاوة وبشر يجددون علاقة قديمة ووداً قديماً والقرآن يعكس في كثير من آياته هذه العلاقة والحفاوة:

قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤ ﴾ الرعد: ٢٣ - ٢٤.

وفي مشهد آخر.. لا يقل حفاوة يقول الحق – جلا وعلا – قَالَ تَعَالَىٰ:
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣

وفي ختام هذه المشاهد نسوق هذه الصورة الحانية .. وقد دخل أهل الجنة وسيقوا زمراً إلى نعيم مقيم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ الزمر: ٧٣

خطاب فيه شوق وود.. وأدب وترحاب.. ودعوة للدخول ثم يختم المشهد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ الزمر: ٧٥

. نحن إذن أمام نموذج من العلاقات نادر.. نشأ بين أهل الملأ الأعلى والصالحين من بني آدم... علاقات بدأ منذ الأزل في مهرجان الـ سجود وا ستمرت كما لمـ سنا عبر مـ سيرة الإنـ سان إلى أن لقى ربه.. وانتهت بالإقامة في دار النعيم..

وهكذا نلمس معالم مسيرة الآدميين وهم يتأرجحون بين مستنقع الشياطين وآفاق الملائكة. ولعلنا نلملم أطراف هذا الفصل بأن نعرض بعض المشاهد القرآنية .. وحصاد التجربة التاريخية لعلاقات حميمة نشأت بين الصالحين من عباد الله وأهل الملأ الأعلى.

.. ونمضي نستعرض نماذج من علاقات الملائكة بالصالحين من عباد الله في هذه اللوحات ونلمس خلال ذلك شيئاً من خصائص الآدمي..

(١) حملة العرش:

أ- نقرأ هذه الآيات من سورة غافر، لنلمس مدى الحفاوة والمودة بين أهل الملأ الأعلى وبين الصالحين من بني آدم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ ﴾ غافر: ٧ - ٩

هذه الآيات من سورة غافر تتحدث عن فريقين:

(I) ملائكة صفوة مقربون هم حملة العرش. وهم يمثلون الصف الأول من الملائكة .. ويكفي أنهم حملة عرش الرحمن.

(II) شرائح أهل الإيمان والرساليين.

ثم ترسم علاقة من نوع عجيب بين أهل الملأ الأعلى في آفاقهم، وبين هؤلاء الأصفياء الأولياء لله تعالى في الأرض.. ترسم خطاً مستقيماً لا عوج فيه بين العالمين.

والنسيج لهذه العلاقات هو وصف وظيفي لحملة العرش:

(الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به)[1].

هذا المقطع يصف وظيفة هؤلاء الصفوة من الملائكة، فهم يسبحون، ويؤمنون بربهم.. ثم يمتد الخط المستقيم للصالحين من أهل الأرض، يحمل هذه البشارة العظيمة، ويطلق هذا الخبر المفاجئ، والأسر: (ويستغفرون للذين آمنوا)[2].

هل يخطر ببالك أن طائفة من أهل الحق، مستضعفة، محاربة، مضيّق عليها، ممقوتة من أهل الباطل.. وأخرى مجهولة لا يعرفها الناس.. هذه الطائفة لها ذكر ودوي بين أهل السموات؟ تهفو إليها ملائكة الله، وتحتفي بها، وتتحلق حولها.. و تدعو الله لها؟ تهتم بأمرها.. وتلّح على ربها بالسؤال؟! ومن باب الحفاوة، والاهتمام أوردت الآيات مفردات دعاء الملائكة .. كيف تسوق دعاءها في أدب جم أمام الكبير المتعال:

(ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا...)[3].

حتى الدعاء تسوقه الملائكة بمقدمة أدب وحياءٌ من الله، حرصاً منها على الاستجابة، وتعبيراً عن شوقها لهذه الصفوة من أهل الأرض.

---

[1] سورة غافر: الآية ٧ .

[2] سورة غافر: الآية ٧-٨-٩ .

[3] سورة غافر،الآية ٧ .

فهي علاقة صفوة من أهل السماء بصفوة من أهل الأرض.

المناخ عجيب، كله ود، و شوق، وإشفاق. وفي إطار هذا الانشقاق نسمع مفردات الدعاء:

(فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم)[٤].

وهي شــهادة من أهل الملأ الأعلى لهؤلاء الصــفوة. وعبارة (تابوا) فيها بـ شارة، تعني أنهم كانوا أنا ساً عاديين يـ صيبهم اللمم، لكنهم تابوا إلى ربهم، وعرفوا ســبـيل الله، واتبعوه .. و تابوا .. فقبلهم الحق، ثم صــاروا من المقربين.. ولعل التعبيرين (تابوا .. واتبعوا) يوحيان بأنها توبة تتبعها تبعات. ثم تمضــي الآيات تحكي اهتمام الملائكة، وتبين إشفاقهم، وإلحاحهم في الدعاء لهذه الشريحة من المؤمنين.

(ربنا وادخلهم جنات عدن التي و عدتهم ومن صــلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم)[١]

والشاهد في هذا المقطع أنه يبرز مدى الحفاوة من أهل الملأ الأعلى بهؤلاء المؤمنين، ومدى الارتباط بهم.

يســأل حملة العرش ربهم أن يد خل هؤلاء المؤمنون الجنة، ولا يكنفون بذلك، بل يسألون أن يدخل معهم من صلح من:

- آبائهم : وهذا يعني أن يمتد أثر المؤمنين فيشمل ماضيهم.

[٤] سورة غافر، الآية ٧ .

[١] سورة غافر، الآية ٨ .

- وأزواجهم: تعبير عن أثرهم في الحاضر.
- وذرياتهم: يتمدد الأثر فيشمل المستقبل.

فكأن الواحد من هؤلاء المؤمنين يعيش حياته القصيرة، ولكن أثره يمتد إلى آماد بعيدة، تشمل مساحات الماضي، والحاضر، والمستقبل. فبركة عمره تمتد إلى أجيال.

وأنت إذا أردت تكريم أحد معارفك أو أصدقائك فإن التكريم يأخذ درجات. في مستوى من التكريم تدعوه لوحده، ثم إذا زاد المستوى تدعوه ومعه والده وزوجته، وقطعاً يتصل التكريم قمته إذا جمعت له في كارت الدعوة (والديه + زوجته + أولاده).

كل ذلك يبين إلى أين مدى تعلق حملة العرش بهؤلاء المؤمنين، وكيف انبهروا، وكيف أحبوهم.. وعبّروا عن كل ذلك في دعاء وابتهال إلى الله.. وفي أسلوب مأدب، رقيق، رفيع.

وهي لوحة رائعة تصل الود القديم. والحفاوة القديمة، التي بدأت يوم مهرجان السجود بود جديد متجدد يمضي مع الأيام والليالي .. وكم بين اليومين من تطابق وتوافققَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾ البقرة: ١٠٥

ونقرأ الآيات التالية لنحس ببرد هذه العلاقة الحميمة أيضاً:

أ- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ النحل: ٣٢

ب- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الأحزاب: ٤٣

جـ- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ الرعد: ١١

د- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ الإسراء: ٧٨

وفي الآية الأخيرة أشارة حفية حانية لذلك المؤمن الذي هجر الرقاد والوساد، وقام مع انبلاج الفجر يسبغ الوضوء، ويصلي.. فيحتشد حوله الملائكة .. فتشهد تلاوته.. فإذا بهذا الذاكر محشود محفود.. وإذا به وسط رهط من أهل الملأ الأعلى.

(٢) مشاهد من التراث:

هذه الإشارات القرآنية انعكست واقعاً معاشاً، حفلت به السيرة النبوية، وتاريخ الرعيل الأول. بل وتاريخ أهل القبلة إلى يوم القيامة وفيما يلي استعراض لبعض النماذج القديمة والحديثة، تبياناً لهذه العلاقة الودودة والرحيمة بين الملائكة في عليائهم، وبين الصالحين من أبناء آدم في الأرض، اتساقاً مع البشارة الربانية (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان):-

أ- روي الإمام ابن كثير في تفسيره الكبير في فضائل سورة البقرة مايلي:

(روى البخاري عن أ سيد بن حـ ضير ر ضي الله عنه قال: (بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة – وفرسه مربوطة عنده- إذا جالت الفرس، فسكت، فسكنت، فقرأ مرة أخرى، فجالت الفرس، فسكت، فسكنت، ثم قرأت فجالت الفرس. قال: فانصرفت مشفقاً على ولدي يحي الصغير وكان نائماً قريباً منها. فلما أخذه، رفع رأسه إلى السماء، فإذا مثل الظلة حتى ما يراه (أي السماء). قال فانصرفت عن القراءة. فلما أ صبح، حدث ر سول الله (ص) بذلك. فقال عليه الـ سلام: اقرأ يا ابن حضير. قال: قد أ شفقت يا ر سول الله على ابني يحي، وكان قريباً منها، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها. قال ر سول الله (ص) " وتدري ما ذاك؟" قال: لا. قال: " تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى عنهم"[1].

ب- وقد وقع نحو هذا للصحابي ثابت بن قيس فيما رواه أبوعبيد: (حدثنا عبّاد، عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن زيد: أن أشياخ أهل المدينة حدثوه أن رسول الله (ص) قيل له: ألم تر ثابت بن قيس لم تزل داره البارحة تزهر مـصابيح؟ قال: (فلعله قرأ سورة البقرة؟) قال: (فسألت ثابتاً، فقال: قرأت سورة البقرة)[2].

---

[1] ابن كثير، تفسير سورة البقرة.

[2] ابن كثير، تفسير سورة البقرة.

جـ- ما وقع كذلك للصحابي الجليل سلمان الفارسي:

روى أهل السير أنه لما حضرته الوفاة قال لزوجته: " احرقي بخوراً، فإنه الآن يزروني أقوام يؤذيهم نتن الرائحة".

والنماذج في هذا الباب كثيرة، حافلة بأنواع هذه العلاقة، وهذه الرابطة بين أهل الملأ الأعلى والمؤمنين من أهل القبلة.. وهي حفاوة تشحذ همم الآخرين.

هذه لوحات رائعات رائقات.. تؤطر وتؤصل هذا الود القديم المتنامي بين الصالحين من الآدميين وسكان الملأ الأعلى من عوالم الله في ملكوته. وهي تزيدنا يقيناً نحن الآدميين بما أودع الله فينا من خصائص، وما استكن فينا من قدرات، وتذكرنا العتاب الإلهي قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ النحل: ١١٨. وهناك مساحات شبه، وتواصل، ووشائج، بين الملأين، ملأ الناس وملأ الملائكة:-

- فالآدميون من المسلمين يصومون عن الطعام والشراب سحابة نهار شهر رمضان.. وسكان الملأ الأعلى لا يأكلون ولا يشربون..فكأن الصائمين يضربون بشبه ما بأهل الملأ الأعلى.

- كذلك يطوف المسلمين بالبيت الحرام حجاجاً ومعتمرين.. وهم في ذلك يتشبهون بأهل الملأ الأعلى – بعضهم- وهم يطوفون بالبيت المعمور.

- كذلك يصطف الآدميون من أهل القبلة في الصلاة، وفي الجهاد، وفي الحرب.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤ ﴾ الصف: ٤

وهم في ذلك يشبهون الملائكة حيث وصفتهم سورة الصافات:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ ﴾ الصافات: ١ وكذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ النبأ: ٣٨. والروح هنا شيخهم جبريل.

كل هذه اللوحات والصور، من قرآن وتراث، تبين لنا كيف يتسامى الإنسان ويتجوهر، فيكون محطة جذب لأهل الملأ الأعلى، فتختلط أنوارهم بأنوار الصالحين من الآدميين.

تأمل أخي هذه اللوحة الجامعة لاحتشاد أهل الملأ الأعلى، وحفاوتهم بالصالحين من البشر.. قال عليه السلام: (ما جلس قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله في من عنده)[٥].

والشاهد هنا (حفتهم)، يعني الاحتشاد، والاهتمام، والود الخالص. وهي صفة قد لا تتيسر للآدميين فيما بينهم.. فإذا بها تتحقق بين أهل الملأ الأعلى (وبين هؤلاء الذاكرين). وهكذا يظل الآدمي-

[٥] الحديث : صحيح البخاري.

وقد خرج من الجنة– تحفُّهُ الصـــداقات الودودة، والاهتمام الكبير من عوالم الملائكة، وتحيط به كذلك العداوات والبغضـــاء من عوالم الشـــياطين. فهو يتأرجح بين النجدين.. ويراوح بين العالمين.. تجذبه طبيعة الطين فينحط ويتســـافل، وتســـمو به (نفخة الروح) فيتجوهر، ويتسامى إلى مراقي عليين. تدفعه الشهوة، تراوده التوبة، والإنابة.

ولشيخنا الإمام أبي حامد الغزالي مداخلة جميلة في (باب التوبة)، من كتابه الإحياء، فنختم بها هذا الفصل. قال:

(أما بعد: فإن التوبة عن الذنوب، بالرجوع إلى ســـتّار العيوب، وعـــــــلاَم الغيوب، مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول إقدام المريدين ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين، ولأبينا آدم عليه الســـلام، وعلى ســـائر الأنبياء أجمعين. وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو أن أذنب الآدمي واجترم، فهي شنشنة نعرفها من اخزم، ومن شابه أباه فما ظلم ولكن الأب إذا جبر بعدما كسر، وعمّر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه في كلا طرفيه النفي والإثبات، والوجود والعدم. ولقد قرع آدم ســـن الندم، وتندم على ما ســـبق منه وتقدم، فمن اتخذ قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم، بل التجرد لمحض الخير، دأب الملائكة المقربين، والتجرد للشر دون التلافي، سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشـــر ضـــرورة الآدميين، فالمتجرد للخير ملك مقرب، عند الملك الديان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى

الخير بالحقيقة إنســـان. فقد اذدوج ي طينة الإنســـان شـــائبتان، وا صطحب فيه سجيتان، وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك، أو إلى آدم أو إلى الشيطان)[1].

[1] إحياء علوم الدين- الإمام الغزالي.

الباب الثالث

حفاوة.. وتسخير

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ لقان: ٢٠

مدخـــــــل:

الإنســـان.. هذا الكائن.. المقيم الراحل.. ترحّل كثيراً عبر الآماد والأزمان.. عاش في الجنة (آدما).. ثم نزل وترجّل من عليائه ليعيش في هذه الدنيا، و قد اغترت عن وطنه الأول (الجنة) .. ولج بطن أمه.. وعاش حياة جنينية.. ثم خرج منها ليستقبل الحياة صارخاً.. مكث في الدنيا ما شــاء الله له، ثم عاد من حيث أتى.. مات.. ليبدأ حياة برزخية بين يدي البعث الأكبر.. وفي آخر المطاف يبعث من مرقده في يوع الفزع الأكبر (بين الانبهار والاندهاش)، وهو يوم وجل منه آحاد الرجال من الرســاليين، قال تعالى فيما يقصــه عن أبي الملة (إبراهيم) عليه السلام: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ الشعراء: ٨٧ - ٨٩

وهو يوم القلوب، والنوايا، والمقاصــد.. تنجلي فيه الأشــياء عن حقيقتها. ذلك الكائن الرحالة يبدأ رحلته الدائرية في دار البقاء في جوار الله، وينتهي به المطاف إلى ذات الدار في رحلة كسب بين جمع، وطرح، ونتائج. والقرآن يطرح مســار هذه الرحلة وتفاصــيلها في آيات بينات، تروي كيف خرج الإنسان، وكيف انتهى به المطاف، وتشير إلى عظمة هذا المخلوق، فلنقترب من آيات سورة (المؤمنون) وهي تقرأ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ المؤمنون: ١٢ - ١٦

في متابعة دقيقة للآيات نتعرف على هذه الخارطة المتكاملة التي ترسمها الآيات لمسيرة الإنسان، وهو في ترحاله من دار الفناء إلى دار البقاء، في حركة دائرية بتتابع.

١- (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين)[1]

ولقد تابعنا في فصل ماضي مسيرة خلقه من طين، وهو الخلق الأول. ولاحظ التعبير الموحي (خلقنا)، وهو يعني إيجاد من العدم من غير سابق مقدمات.. وكونه من (سلالة) تفيد أن أصله هو هذا الطين.

٢- (ثم جعلناه نطفة في قرار مكين)[2]

وهو بداية خلقه في مرحلة الأرض.. ولاحظ (جعلناه)، والجعل ليس كالخلق، كأن الخلق من العدم، (والجعل) لتشكيل شيء في أصله موجود ولذلك جاء هذا التسلسل في رحم أمه وهو يمر بأطوار:

---

[1] سورة المؤمنين، الآية ٢١

[2] سورة المؤمنين، الآية ٣١

أ- نطفة في قرار مكين: والنطفة تتكون من هذا الماء المهين الذي يقذفه الرجل في رحم زوجته.. والماء المهين دلالة على ضعفه رغم جبروت الإنسان الظاهر.

أليس مما يثير الاستغراب أن هذا الآدمي الجبار، كانت بدايته نطفة تشكلت من ماء مهين؟ والسبيل إلى هذا الماء المهين.. أحوال وأهوال، (انظر إليها فإنه حريٌ أن يؤدم بينكما)[٣]..

وفي سبيل هذه النطفة تزخر البشرية في تاريخها بملايين المواقف والمقدمات.. زخم من المشاعر والمودات.. والتحرق والأشواق:

وَقْد زَعَمُوا أَنَّ المُحِبَ إذَا دَنَا يَمَلُ وَأَنَ النَأيَ يُشْفي مِنَ الوَجْد
بِكلٌ تَدَاوينِا فَلَم يَشْفِ ما بِنَا على أن قُربَ الدَار خَيرٌ مِنَ البعدِ

شرائع، وأعراس، وفقه.. ونكاح وإعلان.. (وكروت دعوة) .. (إن ربي لطيف لما يشاء)، وهو بديع السموات والأرض. فتكون النطفة.. وهي في قرار مكين، ثم تمضي النطفة إلى مرحلة العلقة.

ب- (ثم خلقنا النطفة علقة)[١] تلتحم المضغة بالبويضة، وتبدأ البويضة الملحقة في الانقسام الزوجي (٢ ، ٤، ٨ ، ١٦ خلية.. الخ) تتعلق ، وتستمر عملية العلوق، ثم تبدأ مرحلة المضغة.

[٣] الحديث: صحيح البخاري.

[١] سورة المؤمنين: آية ١٤ .

جـ- (فخلقنا العلقة مضغة)[2]: وهنا تتشكل.. مخلّقة وغير مخلّقة. وفي الأسبوع الخامس تبدأ مرحلة التخلق.

د- (فخلقنا المضـغة عظاماً فكسـونا العظام لحماً)[3]: وهي مرحلة تمايز التخلق.. ولاحظ هذه الفاءات المتكررة والتي تفيد الفعل على التو وعلى عجل. ثم تأتي من بعد ذلك:

هـ(ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)[4]

وهو طور الجنين بعد الشهر الثالث، وهو مايُعرلف بالحياة الجنينية ويبدأ القلب في العمل، وكذلك الجهاز الهضـمي.. وتدخل الروح في هذا الكائن. ولقد ورد في حديث البخاري في الصحيح:

(أن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون مضـغة بعد ذلك، ثم يُرسـل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويأمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد.)

حقائق وأرقام

وبمرحلة القلب- هذه المضخة- تبدأ حياته.. ولابد من وقفة أمام هذه المضخة العجيبة التي تبدأ مع الإنسان وهو في بطن أمه، وتبدأ بها حياته، ثم تستمر حتى ساعة مماته.

---

[2] سورة المؤمنين: آية ١٤ .

[3] سورة المؤمنين: آية ١٤ .

[4] سورة المؤمنين: آية ١٤ .

أ- القلب:

- وزنه أقل من رطل. يخرج الدم منه ويتم دورته في دقيقة.

- مقدار الدم فيه: ٦ لترات في الجسم المتوسط.

- عند بلوغ الرجل السبعيني من العمر يكون قد ضخ أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ طن (أربعمائة ألف طن) من الدم.

- دقات القلب: تبدأ قبل الولادة بأشهر، فيدق قلب الطفل ١٣٠ دقة في الدقيقة، تصل إلى سبعين دقة عند البلوغ.

- تبلغ دقات القلب في اليوم ١٠٠,٠٠٠ وفي العام ٣٦ مليون. أي نحو ٢٥٠٠ دقة في متوسط العمر.

ب- الدم:

- هو طريق المواصلات في الجسم. فيه الرسل تروح وتجئ، تطرق باب كل خلية، تزورها بالطعام، وتحمل عناه نفايا هذا الطعام.

- الكرُيات البيضاء عددها في الجسم ٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ إلى ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كرة.

- صفائح ولويحات الدم ١,٠٥٢,٠٠٠,٠٠٠ .

- طول الأوعية الدموية ٦٠,٠٠٠ (ستون ألف برميل).

حقائق تبهر وينحني العقل لها ساجداً وهو يسبح بحمد ربه. ثم تمضي الآيات لتكمل الخارقة للمسار البشري.. وترسم حركته الدائرية، فنقرأ قوله تعالى:

٤- (ثم إنكم بعد ذلك لميتون)[١].

ورود كلمة (ثم) بعد الفاءات المتكررة تفيد عنصر الوقت والتراخي.. وهي إيماءة لعشرات السنين من العمر. التعبير عن الموت هنا جازم لازم، ذلك أنه أتى بعد لام التوكيد (لميتون)، ثم أن التعبير جاء باسم المفعول، وهو يفيد لزوم وقوع الأمر.. وهو تأكيد يزيده توكيداً مع نشاهده من توديع إخواننا وهم يؤبون من حيث أتوا ي كل يوم.

٥- (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون)[٢].

يمضي السياق بـ(ثم) ، ويؤكد أننا مبعوثون.. وفي هذا الورود المتتالي لأمر البعث تالياً لأمر الموت تأكيد على وقوع البعث.. كما نشاهد زمر الموت..

تلك خارطة متكاملة.. و سفر واضح المعالم.. يبدأ بالجنة، وينتهي إلى الجنة أو النار.. ونحن نركض خلف هذا المسار.. لا يتأخر منا أحد عنه، ولا يحيد، طال به الزمن أو قصر.. خلقنا من طين.. وتراب، وإلى التراب نعود... ليلتحم التراب بالتراب، (تراب يعود إلى بعضه) كما قال الشاعر السوداني (جماع).

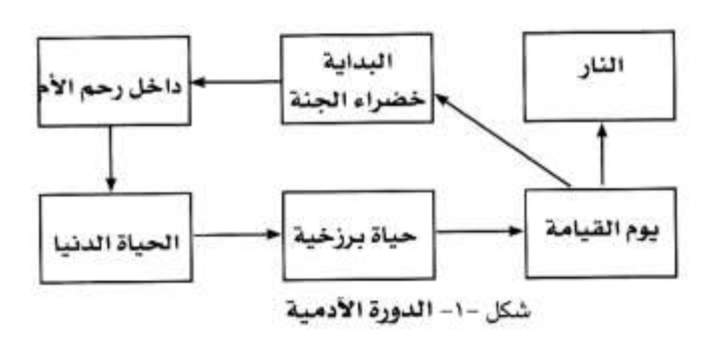
---

[١] سورة المؤمنين، آية ١٥.

[٢] سورة المؤمنين: أية ١٦ .

ثم نلقى الله تعالى في (عرصـــات) القيامة.. وبين الأمرين تمارس البشرية حركتها الحضارية، والتنموية. وتكون الحياة ميداناً لتنزيل كل الكمالات والسفالات إلى واقع معاش.. كل ينفق مما عنده يتجوهر

بعضـنا، فيكسـب الحياة ألقاً، وطعماً، ورائحة .. ويتسـافل آخرون فتكتسب الحياة من رعونتهم ما يجعلها سراباً في سراب. والنهايات : إما في جنات الله،، أو جحيمه المقيم والعياذ بالله (انظر الشكل -١-)



شكل -١- الدورة الأدمية

وفي أيام بقاء هدا الآدمي في الدنيا تمضي الآيات لتجكي.. ما أحاط به من عوالم وكائنات تيســير مهمته.. وتدفع به إلى أن يتعرف إلى ربه خلالها. تمضي سورة (المؤمنون) في أعقاب الخارطة التي رسمتها

للإنسان وسيره من الله إلى الله. تقف وتصور فترة مكثه في الأرض..

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ
﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ
﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾
وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المؤمنون: ١٧ - ٢٢

الآيات السوابق تطرح الآلية التي زامنت نزول الإنسان إلى الأرض، وكيف هيأ الله له هذا المنزل الجديد. ليعيش فيه حياته فينعم بها (إن ربي لطيف لما يشاء)

وانظر إلى هدا الطرح، فهو يحوي المقومات الرئيسية لحركة التنمية في أي مجتمع.. في محاور عالم الماء ،والزراعة، والتنمية الحيوانية ، والمواصلات.

في إ طار هذا الكائن، نكاد نلمس إننا أ مام مخلوق هو (سـيد الكائنات) بلا منازع.

الإنسان سيد الكائنات

هذا الكائن الرحالة الهابط من جوار الله في الجنة إلى الدنيا، دخل إلى هذا العالم الجديد ليجد مناخ غير مناخ الجنة، لقد وجد نفسه محاط بثلاث ممالك:

أ- مملكة النبات.

ب- مملكة الحيوان.

ج – مملكة الجمادات.

ولقد أدرك من أول ملامســـة له بهده المما لك بأ نه ســـيد ها، ومستعمرها، وأنها مسخرة له. وذلك من حفاوة الله بهذا الكائن الصغير الضـــئيل. هذه المما لك هي مفردات هذا الكون الفســـيح المر تب، والذي تبلغ الأرقام في عدديته وإحصاءاته مبلغاً يذهل العقول وعر ضاً وعمقاً.. (وأرقاماً فلكية).

هذا الكون باتســـاعه الذي يعرف، والذي لا يعرف، يســـخره الحق سبحانه لهذا الكائن الضئيل.. الضعيف الضخم .. هذا الكائن الضئيل أ شد ما تكون الضآلة، الضخم أ شد ما تكون الضخامة.. تعالوا نقرأ بعض الأر قام لندرك أن هناك تناقضـــات يحملها الآدميون، نقرا في كتاب (الإنسان ذلك المجهول)

- يقع جسم الإنسان البشري في ميزان الضخامة في منتصف الطريق بين الذرة والنجم. فإن جســـم الإنســـان طوله يعادل طول ٢٠٠,٠٠٠ «مائتي ألف» خلية نسيجية، أو عدد ٢ مليون من الجراثيم العادية، أو ٢٠٠٠ مليون من جزيئيات الزلال، فهو يبدو ضخماً.

- وهو كذلك بالمقابل شيء ضئيل للغاية إدا ما قورن بالأرض والجبال والكواكب، لنقرأ من نفس المصدر:

- (٤٠٠ رجل يقف بعضهم فوق بعض يساوون قمة جبل افرست).
- دائرة نصف نهار الأرض تساوي عشرين مليون شخص.
- يقطع الضوء في ثانية واحدة مسافة بطول ١٥٠ مليون جسم بشري.[1]

هذا الجسم الضئيل والكائن الفريد سخر الله له كل هذه الممالك الثلاثة (الحيوان، النبات، الجماد).

والتسخير سهولة الانقياد وسلاسة متابعة للكائن البشري.. يفعل بها ما يعن له ما يجيش بفكره. وهي -الأشياء- ساكنة، مسلمة منقادة.. لاتناقش، أو تعقب، أو تحتج.

لقد حرص القرآن على عرض نماذج وصور الكون المسخر، وتحدث عن تفاصيل تبين حالات هذا التسخير، وسنسصحب بعض الآيات من كتاب ربنا وهو يشير إلى هذا التسخير، لندرك حفاوة الربوبية بهذا الكائن الصغير الكبير:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ لقمان: ٢٠ انظر إلى هذا التعبير المستفذ للعقل والمشاعر.. (ألم تروا).. كأنه أمر بالغ الظهور، لا يحتاج إلى لفت نظر.. و: أن الناس غافلون عنه.. هو ظاهر مستر،ويكاد يكون خفاؤه

[1] كتاب الإنسان ذلك المجهول- أليكس كاريل.

في شــدة ظهوره، لذلك كان هذا الخطاب الذي يبطن العتاب، ثم تمضي الآيات:

(١) مافي السموات:

المجرات:

يتكون الكون من مجمو عة من المجرات، أو الســدم، او الجزر الكونية، وهي عائمة في الفضــاء. ولقد اكتشــف الإنســان بعض هده المجرات وأبعادها. ولنستعرض بعض الأرقام والأبعاد:

أ- مجرتنا:

- طولها ٢٠,٠٠٠ (عشرون ألف سنة ضوئية)

- الز مان الكافي لتدور المجرة كلها دورة وا حدة حول مركز ها المجري هو ٢٠٠ مليون سنة من سنوات دنيانا.

ب- شمسنا:

- هي كرة غازية وليست صلبة كالأرض.

- عمرها ٥,٠٠٠ مليون سنة تقريباً.

- مساحتها سطحها أكبر من سطح الأرض بـ ١٢٠٠٠ مرة.

- تبعد عنا حوالي ١٥٠ مليون كلو متر.

- يســتغرق الضــوء بينا وبينها ٨ دقائق ،بعمى أنه لو ســار قطار بسرعة ٥٠ كلم/ ساعة. لقطع هذه المسافة في ٢١٠ سنة.

- درجة حرارة الشــمس ٦٠٠٠ درجة مئوية عند الســطح، وفي المرتكز ١٤ مليون درجة مئوية.

ج. القمر:

- حجمه: ١ , ٤٩٪ من حجم الأرض.
- كثافته ٣ , ٢٣٪ من كثافة الماء.
- سرعته حول الأرض ٢٢٧٨ ميل/ ساعة.
- يبعد عن أمه الأرض٢٢٧٨ ميل/ ساعة.

د. أبعاد النجوم من الأرض:

اسم النجم	بعده بالتريليون كلم	بعده بالسنة الضوئية
الشعر اليماني	٨١	٨’٦
الشعر الشامية	٩٦	١٠ , ٢
النسر الطائر	١٤٠	١٤ , ٨
القطبية (الدب الصغير)	٤٤٠	٤٦ , ٨
الديران	٥١٤	٥٤ , ٣

(٢) ومافي الأرض:

أما عن أرضنا فأقرأ وتأمل:

- بيضـــاوية الشـــكل، محيطها٨٠٠ ,٤٣ ميل، وقطرها ٩١٠ ,٧ ميل.
- حجمها ٢٥٩٩ ×١٠^٨ متر مكعب.
- مساحتها ١٩٧ × ١٠^٦ ميل مربع.
- ٧٣٪ من مساحتها مغطاة بالمياه.
- ٢٧٪ من مساحتها يابسة.
- كتلتها = ١ ,٦ × ١٠^٢١
- محيط الأرض ٨٠٠ ,٤٣ ميل تقطعه الأرض كل ٢٤ ســـاعة مرة، فتكون سوعتها حول محورها ٣٤٥٠ ميل في الساعة.

تختم هذه الآيات بعبارة شاملة موحية (ألم تروا).. وأن الله سخر لنا مافي السموات وما الأرض على ما علمنا من أرقام وتفصيلات.

ثم يقول الله سبحانه:

((واســـبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير))[1]. والإســـباغ هو الفيض الغامر، وهي نعمة ظاهرة ملموسة، وباطنة محسوسة.

---

[1] سورة لقمان، الآية ٢٠ .

ومن الأرقام أعلاه- وهي نذر قليل مما اكتشفه العقل البشري من ضخامة هذه الممالك الثلاثة، الحيوان، والنبات والجماد – نحس بعظمة هذا الكائن البشري.. وكيف احتفى به الحق سبحانه وتعالى.. واحتفل بقدومه إلى الدنيا، فسخر له الكائنات تدور في فلكه وتنساق له انسياق انقياد.. يطوّعها الإنسان كيف أراد.. ويشكل منها ما يبهج حياته.. وما يمسّخها .

وفي مجال آيات الله المسخرة لهذا الكائن، ترسم آيات من سورة النحل لوحة لمجالات التسخير. ولا بد لمن يريد الحديث عن التسخير أن يلم بها.

(آيات التسخير)

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النحل، وهي تعرف بسورة النعم:
﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ
فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ
تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ
إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ
لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا
جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ
لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ
وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ
وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا
ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ

يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ
رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ
وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾
وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ النحل:٣
- ١٨

هذه الآيات من أكثر آيات التنزيل تفصيلاً لمحاور التسخير،ونعم الله تعالى التي ساقها للآدميين ليستعينوا بها على حياة سهلة فاضلة ميسورة، ويديمون شكر ربهم والتعرف عليه.

وباستعراض سريع لهذه الآيات، نجد أن القرآن بدأ بخطاب عام للناس كافة، وللمشركين، بأنه خلق السموات والأرض.. وينزه نفسه عن إشراك المشركين.

ثم تقفز الآيات فتتكلم عن – كل الإنسان– (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين)[٢].. وهو تلخيص وإعجاز عجيب.. اختصر المسافة بين المقدمة والنتيجة.. خلق الإنسان.. فإذا به ينقلب خصماً لدوداً، ومع من يا ترى؟ مع الذي خلقه، وسواه، وركبه.

ثم تطرح الآيات مظاهر الاهتمام والتسخير، وتتعرض بشيء من التفصيل لمحاور ودوائر هذا التسخير، والتي يمكن أن نجملها في ستة دوائر:

---

[٢] سورة النحل: الآية ٤ .

١- دائرة الحيوان:

(والأنعام خلقها لكم فيها دفئ ...الخ) خلق الله الأنعام و عدد فوائدها وخصائصها بالشكل عام.

- فيها دفء: سكن وملابس.
- ومنها تأكلون: لحمها، وتشربون لبنها.
- وفيها لمسة جمالية حية حين تروح وتغدو: صوتها وشكلها، مواؤها وصريرها.
- يتخذ الآدمي مطية تطوي له المسافات، وهذه رحمة من الله (إن ربك لرؤوف رحيم)[1].

٢- دائرة المياه:

(هو الذي أنزل من السماء ماء لم منه شراب..الخ) ولماء عصب الحياة لا محالة، ولذلك كان توفيره أمراً لازماً للحياة (أنزل من السماء ماء)[2].

- يشرب الناس منه، وهو ماء مبارك، له آثاره المتعددة على الحياة والأحياء والبيئة والمناخ.

---

(١) سورة النحل: الآية ٤ .

(٢) سورة النحل : الآية ١٠ .

٣- دائرة الزراعة:

(ينبت لم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب..الخ). و تأتي في تسلسل بعد إنزال المطر.. وهو ترتيب طبيعي،، وتختار الآليات نماذج مما ألف الناس (زيتون، نخيل، أعناب).. ويتسع عقل الآدمي فيستهدف أصنافاً شتى، لأن العوامل الرئيسية للزراعة ميسورة (الماء والأرض)، وهذا أدعى إلى أعمال الفكر والتبحر فيه (إن في ذلك لآيات لقويم يتفكرون)[١].

٤- دائرة الفلك:

(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) تعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم.. هذا التنوع وأثره في المناخ، وفي عالم الزراعة والحيوان.. والآثار المباشرة والغير مباشرة.. (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)[٢].

٥- دائرة الأرض:

(وما ذرأ لكم في الأرض مختلف ألوانه)[٣].. وهي إشارة لما تحمله الأرض في باطنها من كنوز وخيرات من شتى الأصناف والألوان.. جامدة وسائلة (إن في ذلك لآية لقوم يذكّرون)[٤]

---

[١] سورة النحل: الآية ١١ .

[٢] سورة النحل: الآية ١٢ .

[٣] سورة النحل: الآية ١٣ .

[٤] سورة النحل : الآية ١٣

٦- دائرة البحار :

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً.. الخ)[٥] المياه المالحة.. وما تحويه نم أسماك وأصداف، وهي مهاد للبواخر والفلك والتواصل، فكأنها تفيد بما في داخلها.. وتفيد بما على سطحها. فانظر إلى هذا الإبداع الإلهي، وهو أمر مستحق الإنحناء والشكر، (لعلكم تشكرون)[٦].

٧- دائرة الجبال:

(وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم...الخ)[١] و هذه دائرة تتحدث عن الجبال أو تاداً ورواسي .. تمسك الأرض أن تميد، وتحافظ على توازنها في محورها الثابت. (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم).. ولاحظ التعبير (وألقى) كما يلقي الحبة في الأرض يمنة ويسرة. وهي تبين الاقتدار الإلهي، وضف الكائنات أمام قوة الله.

٨- دائرة المسح الطوبغرافي والاستدلال:

وتختتم الآيات هذه الدورة المحورية في تذكير الإنسان بمحاور الاحتفاء والتسخير له بدائرة في غاية الأهمية.

---

[٥] سورة النحل: الآية ١٤ .

[٦] سورة النحل: الآية ١٤ .

[١] سورة النحل، الآيتان: ١٥ – ١٦ .

(وأنهار وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون)[٢].

تتحدث الآيات عن معالم في الأرض، وفي صفحة السماء، تتحدد بها المواقع الجغرافية والأبعاد طولاً وعرضاً وارتفاعاً وتذكرنا بهذه السبل والطرق الممهدة عبر المسافات الطوال .. ومن فوقها تبدو النجوم تحدد المسار والاتجاه.

ثم تطوي الآ يات الكريمات هذا المهرجان والزخم من آ يات التسخير والنعم بعبارة تبين العظمة الكائنة وراء هذه النماذج المحددة إلى آ فاق مستكنة في الكون غير محدودة (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. إن الله لغفور رحيم)[٣].

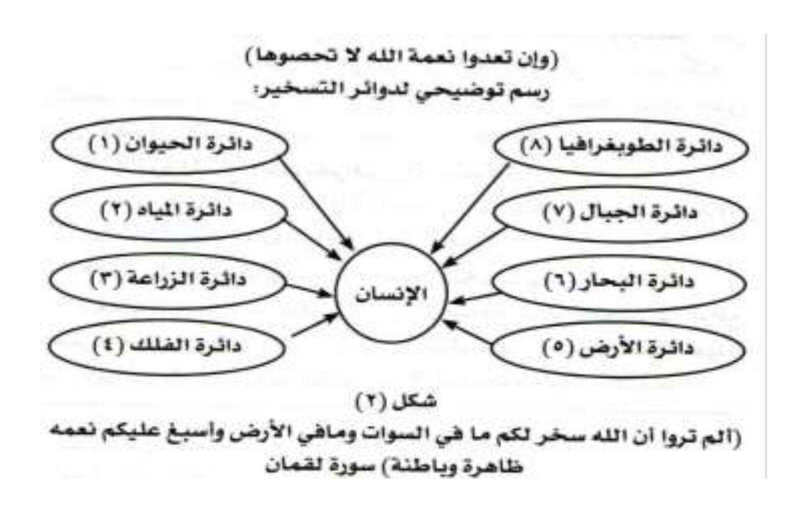
وانظر إلى الخاتمة الحانية من الله اللطيف الخبير.. تبدأ الآيات بأن الإنسان (خصيم مبين)، وتختم بهذا المقطع الحفي للآدميين (إن الله لغفورٌ رحيم) ولاحظ (إن) حرف التوكيد والنصب.. ولام التوكيد، ثم اسم المفعول غفورٌ ثم (الرحيم).

إنها الرحمة الأزلية والغفران، والكرم الذي واكب مسيرة الإنسان في الدهر الأول من الجنة، واستمر بعين الله ورعايته في الدنيا،، ويوم القيامة إنشاء الله. (انظر الشكل-٢):

---

[٢] المرجع السابق.

[٣] سورة النحل: الآية ١٨ .



شكل (٢)
(الم تروا أن الله سخر لكم ما في السوات ومافي الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) سورة لقمان

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)

خصيم مبين:

كل هذه الحفاوة الإلهية . كيف قابلها الإنسـان – إلا من رحم ربك– ؟ ي سـبيل معرفة ذلك نتابع الآيات من سـورة الانفطار: قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ الانفطار: ١ - ١٢

انتقل القرآن إلى مشـــاهد القيامة.. والناس في هول المطلع حيث تبدو الأشـــياء على حقيقتها، والخطاب الإلهي يواجه هذا القادم، هذا المخلوق العجيب الذي احتف به القدرة:

- ما غرك بربك الكريم؟ ما الذي اغرك.. وســاقك إلى النســيان والنكران؟! ولاحظ التعبير (ربك).. وبالإضافة وصفه الكريم الذي:

١- خلقك: من العدم.

٢- فسواك: بعد الخلق إصلاحاً، وتزييناً، وتحسيناً.

٣- فعدلك: التناسب والتناسق، والصور الجمالية المختلفة.

٤- في أي صورة ما شاء ركبك.

هي مرحلة طويلة.. خلق، تســوية، تعديل، تركيب.. مطبخ زخر بالحركة.. فمن تصنيع، وتشطيب، وتغليف، وإخراج.

والآيات تهتف بهذا الهتاف المتأني الذي يحمل العتاب: ما غرك بربك الكريم؟ ولذلك قال عليه الســلام: " غرة جهله" جهله بربه، وجهله بنفســه، وما انطوت عليه من إمكانيات ومقدرات. ولقد قيل للفضيل بن عياض: (إن إقامك الحق يوم القيامة بين يديه، وقال لك ما غرك بربك الكريم؟ ماذا تقول؟ قال: " أقول غرتني ستورك المرخات علي"[1].

---

[1] تفسير الزمخشري.

وتتوالى الإشـــارات القرآنية فتبين ســـلوك الإنســـان حين يرتكس وينقلب عليه الحال، فيصـــبح عبداً للأشـــياء، تســـتعبده وتأثر عليه، وتحكم مساره، بعد أن كان مؤهلاً ليكون سيداً على الكائنات، والآيات التي تتحدث عن هذه الظواهر كثيرة في كتاب الله نجتزأ منها:

١- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ يونس: ٢١

٢- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ﴾ هود: ٩

٣- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾ الإسراء: ٨٣

٤- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾ العاديات: ٦

الإنســـان هذا الكائن العجيب، والذي احتفت به القدرة في خلقه وقدومه إلى الأرض، وســـخرت له الكائنات، فإذا به يقابل كل ذلك بالنسيان واللامبالاة.. ليبرهن على غلبة طبيعة الطين فيه.

والآيات الســـوابق توضـــح أمره عندما يتدنى، ويتســـافل، ويتنكب الطريق، وذلك يعكس تذبذبه بين آفاق الملأ الأعلى.. ومســـتنقع الشياطين.. وتبين كيف يفرط الإنسان في قسمته من نور الهداية، وكيف يضـيع نصـيبه من أشـياء مركوزة فيه.. فإذا به يدفنها ويهيل عليها كمية من الرعونات فتندثر هذه الجوهرة، وتموت، فينقلب الإنســـان عبداً للأشياء والعادة، وهو مهيء لأن يكون سيداً للأشياء.

إنه الارتكاس في ظلام الحمأ المســنون، والخروج من دائرة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ الحجر: ٢٩

قد هيئوك !!

هذا غيض من فيض، مما ذخر به الكتاب الخاتم الأوحد وهو يتناول الإنسان ذلك الحدث الأكبر في تاريخ الخلق وحقائق الوجود.. بل وهو طرح خلق الإنسـان، وتسـويته، تعديله، وتركيبه، ثم يفصـل نكرانه ونكوصـه. كل ذلك يطرحه الكتاب العزيز، ويشـير إشـارات واضحات لتسخير الكائنات له ليتربع سيداً عليها.. ويكون بعد ذلك كفوراً كنوداً، يتأرجح بين آفاق الملائكة وآفاق الشياطين.

ولو اقتربنا من ذواتنا، وفتشنا دواخلنا، لاكتشفنا أننا ننطوي على كنز عظيم، وإمكانيات هائلة، ومقدرات مذهلة، مركوزة فينا منذ الأزل، أمدنا الله بها الحق سبحانه وعجن عجينتنا بها.

ما الذي يمنع الإنسـان من أن يفجر هذه الطاقات، ويكتشـف تلك المقدرات، فيعيش بن الناس في الأرض بقلب ملائكي وجسـد بشري؟؟ ما الذي يمنع الإنسان أن تتمدد فيه المعاني السمو والتوكل.. وإشراقات الملأ الأعلى، فتمتلئ حياتُه براً وبركة، خاصة أن مستودعاته مليئة بإمكانات زاخرة تؤهله لهذا الدور؟!..

قَدْ هَيَئُوكَ لأَمرٍ لَوْ فَطِنتَ لَهُ　　فَأَربأ بِنَفسِكَ أَنْ تَحْيَا مَعَ الهَمَلِ

وصـدق الله العظيم حين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ النحل: ١١٨

ولي في كلمة سابقة:

دنيا تناقض أحياها وألعنها أمشي أجاهدها حيناً فتصرعني

أكاد أزور من معنى يساورني معنى حياتي وأيامي مع الزمن

وأحمل الماء والكأس الرطيب بها لكنني عطش للماء والمزن

وعالمي لا تسل عنه فإن به ز عا نف وأ فا ذ ين من المحن

وفيه لحن رقيق كم أحن له لولا ظلال على قلبي لعطرني

وفيه من لمحات كم سجدت لها في مطلع الفجر والدنيا تسامرني

أئن من ألم اللذات في خلوتي أحس لسع شظاياها تحرقني

أحرقت فيهم شموعي وهي خافتة فما وعوها وهذا ما يؤرقني

أبحرت من عالم العدم الخافي ووحشـــته عبر الحياة ومازالت بها سفني[٢]

أخي القارئ..

إن اكتشاف الذات وتفجير طاقاتها مهمة عسيرة للغاية، وهي أساس النجاح في الأفراد والأســر والمجتمعات.. وعن فن اكتشـــاف الذات وتلمس كنوزها المدفونة، وتفجير طاقاتها، سـيكون فصـلنا الأخير من هذه الرسالة، فإلى هناك...

---

[٢] من ديوان (أنفاس العشية) للمؤلف.

الباب الرابع
الكنز الدفين

بَدَا لَكَ سِرٌ طَالَ عَنْكَ اْكْتِتَامُهُ

ولَوْلاَ صَبَاحٌ كُنْتَ أَنْتَ ظَلاَمُهُ

لفَاضَتْ بُشَارَاتُ القُبُول وطنبت

عَلَى مَنْصَــبِ الكَشْــفِ اَلْمَصُــونِ

خِيَامُهُ

وجَاءَ حَدِيثٌ لا يَمَلُ سَمَاعُه

شَهِيٌ لَدَيْنَا نَثْرُهُ ونِظَامُهُ

إذا سمعتْه النفسُ عناؤها

وزَالَ عَنِ القَلْبِ المُعَنَّى ظَلاَمُهُ

مدخـل:

رأينا فيما سبق من أبواب الممالك الثلاث: مملكة الحيوان، مملكة النبات، مملكة الجماد.. كما لمسنا من خلال أرقام وحسابات كيف أن الإنسان - وهو الضئيل حجماً، الهزيل تكويناً- تميز بهذا العقل الدرّاك المنقّب، وبهذه الإرادة القاصدة، والعزم الذي لا يجارى، والقدرة على تسخير من حوله وتحريكه. إنه- الإنسان- مخلوق عجيب غريب. ولقد صدق الإمام (علي كرم الله وجه) حين قال في كلمة منسوبة إليه:

داؤكَ فيكَ وما تُبْصِرُ   دَوَاؤكَ فيكَ وما تَشْعُرُ

وتَزعَمُ أنك جُرمٌ صغيرٌ   وفيكَ انْطَوى العالَمُ الأكبرُ

وحول ذات المعنى دندن الداعية الكبير الأستاذ محمد علي العجيمي[1] في أبيات له:

كُنتَ أنْتَ حِجَابُ نَفسِكَ فَاعتبرْ   وسَدَدْتَ مَجَاري فَيضِكَ فَافْتكر

[1] داعية إسلامي رائد. نشأ في الثلاثينات في شمال السودان (البرصة) وأنشأ خلوة للقرآن ومدرسة للتعليم ومسجداً لنشر علوم الشريعة والرقائق. قاد حركة إصلاح وتجديد من أهم معالمها وحدة الطريق إلى الله في زمان شاع فيه التعصب للطوائف والأشياخ وكذلك رفع راية الجمع بين الشريعة والحقيقة على منهج القرآن وصحيح السنة ونادى بتصفية التصوف مما علق به من أدران واهتم بتعليم المرأة. وجد عنتاً من معاصريه من أدعياء التصوف والتقليديين على السواء. كان والدي المؤلف من الذين تأثروا به وآزروه وحملوا معه هذا الفكر الإصلاحي الجديد.

**لا تَلُمْ إلاَّك فِي جَهْـر وسِـرٍ		لو صَفيتَ شَهَدْتَ نَورَ جَمَالِهَا**

وبرز سؤال أساسي مشروع:

أترى أن هذا الآدمي، والذي اســتودع الله فيه ما نرى من قدرات وإمكانيات، أتراه خلق ســـدى؟ .. وما الغاية من وجوده؟ هل يقبل العقل السويُّ البشريُّ لنفسه بعد هذه الخصائص أن تكون حصيلته هي حصــيلة أحط الكائنات.. أكلاً وشــرباً، وتوالداً.. ونوماً؟ أتراه يرضـى لنفســه بذات الاهتمامات التي تعيشــها الســباع، والكلاب، والقطط، والذئاب الضالة بل الهوام، والكائنات الدقيقة؟. أيرضى أن يكون برنامجه اليومي هو برنامج الحيوانات التي تعيش معه في داره، وأن تكون حياته هي مجرد مشـوار بين المطبخ والحمام؟ إن الإنسـان بهذه الخصــائص يمثل جزيرة كبيرة تربط بين عالم الملك المشــهود، وعالم الملكوت المغيب.. إنه البرزخ الذي يمزج بين إبداع العالمين في محيط واحد.

إننا على التحقيق مهيئون لدور كبير في هذه الدنيا، ولغرض أســمى نعيش له ولغايات عوالي:

**وإنا لمن قوم كأن نفوسهم		بها أنف أن تسكن اللحم والعظما**

ولعل أواخر سورة الذاريات تلخص هذه الغايات قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦ - ٥٨

١- بركة العمر:

إن الإنسان عندما يحيا لغاية: ويعيش لهدف أسمى.. فإنه في ذلك يكون قد أحسن إلى نفسه فوضعها في موضعها الذي يليق بخصائصها، وما بخل عليها في اكتشاف جوانب هذه الخصائص.

عندما يحيا الواحد منها لهدف بعيد يكون كما ذكر أستاذنا الشيخ البشير في ملحمته (المسيد) وهو يتناول دور طلائع الدعاة في صور شعرية آخاذة:

من الذي يَذْرعُ الفَيَافِي مُغبَّراً جدَّ في المَسِير
دِثَارهٌ فَاخِر السَجَايَا وكبرياءُ الفَتى الفَقِير
وإنّ في نَاظِرَيهِ عُمقَاً يِشِّفُ عن مقصدٍ كَبِير

والمقصود الأسمى والكبير عندما يعيش له الإنسان فإن عمره يتجدد ويتبارك.. بمعنى آخر أن أصحاب الهموم الكبيرة ربما تكون أعمارهم لا تتجاوز السبعين أو الثمانين،ولكن أثر الوا حد منهم يتجاوز جيله وأبناء جيله ليترك بصماته على المسيرة البشرية كلها .. و هذا ما عناه حملة العرش من الملائكة في دعائهم الحاني لهؤلاء الرساليين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ غافر: ٨.

وبركة العمر شيء تلاحظه في أفراد عاشوا أياماً قليلة، وسنوات معدودة في حياتنا، ولكن ما حققوه يعادل قروناً. لعل أخانا الشهيد سيد

قطب (رحمه الله) قد صور هذا الأمر في مقدمته الرائعة لكتابه الفذ (في ظلال القرآن) حين قال:

(الحياة في ظلال القرآن نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها.. نعمة ترفع العمر، وتباركه، وتزكيه، والحمد لله لقد مَنَّ اللهُ عليَّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت من نعمته ما لم أذقه في حياتي. ذُقْت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر، وتباركه وتزكّيه، ولقد عشت ا سمع الله- سبحانه- يتحدث بهذا القرآن.. أنا العبد الحقير الصغير. أي تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل؟. أي رفعة للعمر يرفعه لها هذا التنزيل؟ أي مقام كريم بتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟

وعشت في ظلال هذا القرآن انظر مِن علوٍّ إلى الجاهلية التي تموج بها الأرض.. إلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة.. انظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال، وتصورات الأطفال كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال وتصورات الأطفال، وأعجب، ما بال هؤلاء الناس؟! ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل؟ النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه؟.

عشت أتملّى في ظلال القرآن ذلك التصور الكامل،. الشامل، الرفيع، النظيف للوجود.. لغاية الوجود كله.. لغاية الوجود الإنساني، وأقيس إليه التصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية في شرق وغرب وشمال وجنوب. وأسأل: كيف تعيش فيها البشرية لي المستنقع الآسن، وفي الدرك الهابط وفي الظلام البهيم، وعندها ذلك المرتع الذكي، وذلك المرتع العالي، وذلك النور الوضئ؟ ومن ثم عشت في

ظلال القرآن الكريم هادئ النفس، مطئمن السريرة، قرير الضمير. عشـــت أرى يد الله في كل حادث وفي كل أمر.. عشـــت في كنف الله ورعايته.. عشت استشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها).

وكنموذج لبركة العمر هذه نستعرض حياة سيد الأولين والآخرين (عليه الصلاة والسلام) ففيها أسوة كبرى.. فقد عاش ثلاث و ستين عاماً، منها أربعين عاماً قبل الرســالة.. وثلاث وعشــرون عاماً هي ســنوات العطاء والتكليف.. ولو حصــرت الإنجازات التي تمت على كافة الأصعدة في هذه السنوات لذهلت.

ولنأخذ كمثال النشــاط العســكري الذي قام به في غزوات وســرايا خلال هذه الثلاث وعشرون عاماً.. وعلى ذلك نقيس بقية الأنشطة.

فقد روى أهل السيرة وأجمعوا على أن سيد الأولين والآخرين قد قاد بنفســه ثمان وعشــرون غزوة، في ظرف العشــرة ســنوات التي أقامها بالمدينة كانت بدايتها غزوة (درّان)، في شهر صفر، من الثانية للهجرة، وآخر غزواته كانت تبوك، في شهر رجب، من السنة التاسعة للهجرة.

وبمعنى آخر قام بهذا النشاط في سبع سنوات، وكذلك حرّك كميات من الســرايا، خطط لها، ووجهها، وهي ســبع وأربعون ســرية في ذات السنوات السبع تقريباً. فهذه في مجموعها (٢٨+ ٤٧) خمس و سبعون تحركاً عسكرياً في حوالي ثمان سنوات. فيكون متوسط السنة حوالي عشرة تحركات عسكرية.. بواقع تحرك واحد في كل شهر تقريباً. فأي بركة أكبر من ذلك..؟!

ونلاحظ أن كل هذا التحرك العسكري بدأه و قد جاوز عمره الخامسة والخمسين، وهي أقرب إلى سن (المعاش)، والارتخاء، والسلوك الانهزامي عند الآخرين.. ولكنها النبوة، والهمة، وبركة العمر.

هذا جانب واحد وهو النشاط العسكري.. ولو ذهبت تعدد مناشطه الأخرى.. في بناء الدولة من نواحي اجتماعية، و سياسية، واقتصادية، واستقطابية، لأصابك الدهش من بركة هذا العمر.

إنها النبوة. والتفرّد، والبركات التي تمددت على هذا العمر، فأحالته من عمر قصير إلى آماد طويلة.

ولو استعرضنا بعض حياة هؤلاء الرساليين لوجدنا أثر هذه البركة واضحاً. فإنك لو تصفحت جوانب سيرته (عليه السلام) طيلة الثلاثة وعشرين عاماً، وهي أعوام الدعوة والرسالة، وحاولت أن تقسم هذه السنوات على كمية الإنجاز على صعيد المعاني والمباني، لخرجت بحشد من المشاهد والأحداث يضيق بها هذا العمر.. إنها البركة و سر التمدد. بركة الوقت، والزمن، والعمر.. وقس على ذلك شخصيات مثل عمر بن عبدالعزيز.. وسيرته التي تعطرت بها كتب التاريخ.. تشعر أنك أمام رجل كأن عمره قد امتدت إلى مئات السنين وهو في حقيقته لم يتجاوز الأربعين إلا قليلا. هي بركة العمر إذن، وتفجير كوامن الذات.

٢- أصناف البشر:

الحق سبحانه وتعالى حين خلق هذا الآدمي، وفّر له كل أنواع الرزق لكي يعيش.. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ النحل: ١١٨

والرزق نوعان:

أ- **رزق الأجسام**: به قوامها، من مأكل، ومشرب، ومنكح، وملبس، وسكن مقيم، ورفاهية عيش. وهو رزق كفله وضمنه للناس أجمعين، صالحهم وطالحهم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ هود: ٦

ب- **رزق الأرواح**: تتغذى به، وتنفذ من خلا له إلى أ فاق الملأ الأعلى، فيكون الآدمي بذلك قد تحققت إنسانيته، و شفّ ورقّ.. وهذا الصنف من الأرزاق ميسر مطروح لمن سعى إليه وأناب، ولمن اجتباه ر به قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ الشورى: ١٣

والإنسانية أزاء هذين النوعين من الأرزاق صنفين:

❋ صنف كنود:

أعرض عن أمر ربه، ونسى خلقه، وطمر كل مكنوناته، وأهال عليها النسيان والنكران، والآيات القرآنية تصور هذا النوع أبشع تصوير، وتعرضه في لوحة مزرية معبرة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦

ولعلك تلاحظ هذا التسلسل في التدحرج والانهزام:

أ- **أتيناه آياتنا**: منح حظه من هذا النور والهدي.

ب- **فانلسخ منها**: والانسلاخ تعبير يوحي بالإصرار على التفلت، والكنود، والفرار من منهج الله تعالى.. وهو يوحي بالخروج عنوة عبر معاناة (الانسلاخ).. كما ينسلخ الجلد من البهيمة، وكما ينسلخ انمهار من الليل.

جـــ- **ولكنه أخلد في الأرض**: كما جرت المحاولات لرفعه إلى آفاق عليها، تدحرج وانكفأ إلى الأرض. والإخلاد تعبير يوحي بالركون، والانهزام، والميل، والسقوط.

وتمضي الآيات وتعقد مقارنة بين هذا الصنف وبين (الكلب).. هذا الحيوان العقور، اللاهث، المنزعج، الشديد القلق. وانظر إلى هذه

اللوحة المعبرة (أن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث).. فهو مشفق، لاهث، قلق، إن حملت عليه أو تركته.. كأن القلب والاضطراب صفة لازمة له. وهذا نموذج للحياة الخالية من المعاني واللطائف، والتي لا تجد برد إيمان مكاناً فيها. هو نموذج ذلك لمجتمعات تنكرت للفطرة، وسبحت عكس تيارها، فأخرجت بشراً مضطرباً، وشخصيات منفصمة، غير متصالحة مع دواخلها، وكانت النتيجة مسخاً مشوهاً للإنسان.

*** صنف صفي ودود:**

وهؤلاء نالوا قسطهم من رزق الأرواح، اهتدوا إلى دهاليز هذا الرزق، عرفوا طرائقه، وسعوا إليه.. فطعموا منه، وتلذذوا بمذاقه النهلّ، وصبروا على أن ينالوه، وتحمّلوا في سبيل ذلك كل مشقة وحرب وتآمر.. ولكن لذاذات هذا الرزق ألهتهم عن كل مكروه نالهم:

هنيئاً لأهل الدير كم سكروا بها وما شربوا منها ولكنهم هموا

لقد أدركت هذه الكوكبة من العباد الربانيين أن الغاية من خلقهم هي أن يتعرفوا إلى ربهم (إلا ليعبدون)[1].

وفهموا العبادة بمعناها الواسع الرحب الذي أورده القرآن قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ ﴾ الأنعام: ١٦٢

[1] سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

وهو توجيه واضح الدلالة من الله لنبيه الكريم أن يفرد ربه بالربوبية، ويجلس على بساط العبودية مسلماً أمره جميعه، وبمعنى آخر أن يسجل نفسه ملكاً حراً لله تعالى. ولذلك كانت حياته – عليه السلام- وقفاً لله، وقد اضمحلت وانمحت فيه أي بقايا للأنانية والأنا، ولم تبق في ساحات قلبه الطاهر المشرق أي مساحة لغير الله ذي الجلال، كما يقول شيخنا الغزالي " رحمه الله" في كتابه (إحياء علوم الدين): " هذا حال عبد مفقود لنفسه. موجود لسيده"[1].

هذا الصنف من الأصفياء المفردين (توهطوا) على بساط هذه الآية النموذج، وعاينوا أحوالهم، فحنوا إلى ذلك الوادي المقدس، وهفت أرواحهم إلى تلك المناهل والمشارب فأغذوا السر، ركبوا مطايا العزم، حتى منّ الله عليهم فنالوا قسطاً وفيراً من المعاني، فتجوهرت ذواتهم، ومشوار بهذا النور في الناس يقدمون النموذج للذين اكتشفوا الكنز المدفون فيهم، ونقبوا.. واستخرجوا.. وسنعرض لو حات ومشاهد لهذا النوع:

الربانيون الأصفياء

١- لوحات قرآنية:

والقرآن يعج بلوحات بارعة زاهية لنماذج من ذا النوع الذي سلك أقرب المسالك لبركة العمر.. وهؤلاء أنواع وأشكال نتلمس بعضها فيما يلي:

---

[1] إحياء علوم الدين: أبي حامد الغزالي.

أ- لوحة مضيئة ترسمها سورة الفرقان:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا
خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا
وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا
كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ
يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ
ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ
مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ
سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا
فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ
مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا
وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ الفرقان: ٦٣ - ٧٣ ب- سورة الأنفال:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا
تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ
دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ الأنفال: ٢ - ٤
جـ- سورة المؤمنون: قال تعالى:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ

﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ المؤمنون: ١ - ١١ ذلك غيض من فيض مما زخرت به آيات الحكيم العليم في القرآن المجيد. ولقد فاض كذلك تراث الفكر الإسلامي بكلمات مضيئات أخذت من المشكاة القآنية. فرسمت بريشتها صوراً جذابةً للمؤمنين.

*** صور قلمية:**

قال في كلمة منسوبة إليه في (نهج البلاغة) يصف المؤمنين: هم الذين منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع. غَضّوا أبصارهم عما حرم الله. وأوقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء. لولا الأجل الذي كتبه الله عليهم، لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصغر مادونه في أعينهم. قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة. حاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة. صبروا أياماً قصيرة، أعقبتهم راحة طويلة. أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسَرَتْهُم ففوا أنفسهم منها.

أما الليل فصافُون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليه طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً. وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها بمسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم جاثون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون من الله تعالى فكاك رقابهم. وأما النهار، فحلماء، علماء، أبرار، أتقياء. قد براهم

الخوف من الله بري القداح. ينظر إليهم الناظر فيسحبهم مرضى وما بالقوم من مرض.

لا يرضون من أعمالهم بالقليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون. إذا زُكّي أحدهم خاف ما يقال له، فيقول:أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بنفسي مني، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، وأغفر لي ما لا يعلمون.

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعملاً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة وتجملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتحرجاً عن طمع. يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل. يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبين حذراً، ويصبح فرحاً.. حذراً لما أصابه من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة. إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤالها فيما تحب. قرة عينه فيما لايزال، وزهادته فيما لا يبقى يمزج الحلم بالعلم، والقول بالقول.

تراه قريباً أمله، قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، سهلاً أمره، حريزاً دينه، مكظوماً غيظه. الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان في الغافلين، كتبه الله في الذاكرين. يعفو عن من ظلمه، ويعطي من حرمه ويصل من قطعه. بعيداً فُحشه، في الزلال وقور، وفي الرخاء شكور، وفي المكارة صبور. لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم يمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، ولا ينابز بالألقاب. لا يضار

بالحجار، ولا يشمت بالمصائب. إن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له. نفسه منه عناء. والناس منه في راحة. أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه)[1].

٢- الحارث بن أسد المحاسبي (رحمه الله):

قال في كتابه (رسالة المسترشدين) يصف أهل الصدق، ويخاطب تلميذاً له: (وعلامة ذلك في الصادق: إذا نظر اعتبر، وإذا تكلم صبر، وإذا أعطى شكر، وإذا جُهل عليه حلم، وإذا علم تواضع، وإذا علّم رفق، وإذا سُئل بذل. شفاء للقاصد وعون للمسترشد. حليف صدق، وكهف بر. قريب الرضا في حق نفسه، بعيد الهمة في حق الله. رتبته أفضل من علمه، وعمله أبلغ من قوله. موطنه الحق، ومتعلقة الحياء. وشاهده الثقة، له بصائر من النور يبصر بها، وحقائق من العلم ينطق بها.

وإنما يظفر بذلك من جاهد لله، واستقامت لطاعته نيته ، وخشي الله في سره وعلانيته، وشمّر مئزر الحذر، وأقلع بريح النجاة في بحر الابتهال، يحسبه الجاهل صميتاً عيياً، وحكمته أصمتته، ويحسبه الأحمق مهذاراً، والنصيحة لله أنطقته.

[1] نهج البلاغة: الإمام علي كرم الله وجهه... بتصرف.

ويحسـبه غنياً، والتعفف أغناه، ويحسـبه فقيراً والتواضـع أدناه. فهكذا كن.. ولمثل هؤلاء فاصـحب.. ولآثارهم فاتبع.. وبأخلاقهم فتأدب.. هم الكنز المأمون)[٢]

هذه نماذج قرآنية وصور قلميه للذين غاصوا في أعماقهم فاكتشفوا ما أودعهم الله تعالى من خصائص.. وهم شرائح شتى من أهل العزائم.

ونواصـل.. ونتعرض لنماذج أخرى من هؤلاء الذين اكتشـفوا مكنون ذواتهم، وحركوا في أنفسـهم الجوانب الخيرة ففجروها، ونعرض لهم في شكل شرائح وأصناف على سبيل المثال لا الحصر (الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب).

(٢) يتامى التاريخ

نماذج حية

من خلال مسـيرة ومن حصـاد التجربة التاريخية نلمس أثر هذا الدين في خلق مجموعات من الأصـفياء الأخفياء ومن ضـمن هذه المجموعات .. يتامى التاريخ) وهؤلاء ثلة من المؤمنين ضـاقت فيهم مسـاحة (الأنا)، دلفوا إلى ذواتهم، حفروا في أعماق مدائن نفوسـهم.. فإذا بالنبع ينبجس من دواخلهم، وإذا هو ماء غدق رقراق. يفيض بالمعاني والمعالي، وبالاسـتعداد للكمات الإنسـانية.. وإذا هم جواهر تمشـي بين الناس... يعيشـون الفضـائل العليا.. والمثل.. ويتلبسـون بها.. يتمثلونها، ويؤدون كل ذلك وقلوبهم وجلة خائفة من معركة

---

[٢] رسالة المسترشدين: المحاسبي.

القبول وتصفية النتائج عند من يعلم السر وأخفى.. ذلك لأنهم قبل كل شيء عباد الرحمن، والعبد لا يتجاوز وصفه الوظيفي مهما بلغ.. بل إن كماله في المزيد من العبودية.. ولسان حالهم يصوره كصاحب الحكم (ابن عطاء الله السكندري) رحمه الله فيقول في كلمة رائعة: **(ليكن فرحك بالطاعة لا لأنها برزت منك، ولكن لأنها برزت من الله إليك " قل بفضل الله ورحمته وبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون")**[1].

لقد ساق الكاتب الإسلامي الأستاذ مصطفى صادق الرافعي هذا المعنى في عبارة جميلة في كتابه "وحي القلم": **(أولئك أقوام يرون أن ما بهم من فضائل إنما هي أمانات أئتمنوا عليها ليبلغوها للناس)**[2].

ولذلك زالت عنهم أمراض الانتفاش والزهو من أثر عمل المعروف أو الطاعة، وتحقق فيهم نداء الحق قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ الفاتحة: ٥.

فالآية واضحة في تبيان التحلي بالعمل. والتخلي عن رؤية العمل والانتفاش.. إياك نعبد .. وإياك نستعين على هذه العبادة. وهناك إشارات قرآنية كثيرة تؤكد هذا المعنى.. أنظر الإشارات اللطيفة في أمر الزكاة، والمعلوم أن الذي يزكي ماله ويعطي الآخرين قد يورثه هذا العمل نوعاً من الاستعلاء. والقرآن يعالج القضية: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ المائدة: ٥٥.. خفيضوا الرأي والحال.. كأنما

---

[1] غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية: ابن عباد النفري.

[2] وحي القلم: الرافعي.

يتبرءون من أي (سفيانية) في هذا الشأن، فهم الأتقياء، الأخفياء، لا يعلمهم إلا ربهم.. وهم بذلك يتامى التاريخ وضنائن الحق:

دخلوا فقراء إلى الدنيا وكما دخلوا منها خرجوا

وكتب السير في السلف والخلف، ذخرت بهذه النماذج التي ضاقت مساحة (الأنا) .. وإليك أصنافاً منها:

أ- البراء بن مالك:

أحد يتامى التاريخ.. صحابي جليل.. شهد أحداً، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله، إلا غزوة بدر.. شجاع مقدام.

روى أنس بن مالك عن رسول الله (ص) أنه قال:" رب أشعث أغبر لا يؤبه له، لو أقسم على الله عز وجل لأبره، منه البراء بن مالك).

قال بن الأثير في كتابه (أسد الغابة):

(لما كان يوم تَسْتُر من بلاد فارس، انكشف الناس فصاح المسلمو بالبراء: لقد روينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال: رب أشعث أغبر لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبر الله قسمه، منهم البراء بن مالك. فقم يا براء وأقسم على ربك. فقام البراء رضوان الله عليه ونادى ربه قائلاً:

(أقسم عليك يارب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيك)، فحمل، وحمل الناس معه، فقتل البراء رئيس الفرس فانهزم الفرس، واستشهد البراء رضوان الله عليه[1].. أبر الله قسمه.. فذهب إلى ربه.

فانظر أخي مكانة البراء عند الله، وحرصه ألا ينال حظاً دنيوياً من هذه المكانة. و هذا نسق هؤلاء الربانيين.. الأتقياء.. الأنقياء.. الأخفياء، رضوان الله عليهم.

ب- معركة توريت:

يقص علينا شهود عيان في تحرير مدينة توريت بأن هناك شاباً شاهد في رؤيا منامه كل تفاصيل ترتيبات العدو.. وكشفها للقائد صباح اليوم التالي. وكان الأمر كما رآه.. ثم سأل الله الشهادة فرزقها.

جـ- جليبيب:

صحابيٌّ من الموالي.. أحد يتامى التاريخ. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب له بنفسه ليزوجه امرأة من الأنصار، فلما تأبى أبوها قالت هي: **(أتريدون أن تردوا على رسول الله أمره؟! إن كان قد رضيه لكم فانكحوه).** فرضيا وزوجاها.[2]

وقد افتقده رسول الله صلى الله عليه وسلم في موقعة من غزواته كما يروي ابن برزة الأسلمي رضوان الله عليه قال: **(كان رسول الله (ص) في مغزى له فآفاء الله عليه، فقال لأصحابه: (هل تفقدون من أحد؟)**

---

[1] من حديث فلي مسند الإمام أحمد عن أنس.

[2] أسد الغابة ي معرفة الصحابة: ابن الأثير ص ٢٤٠ المجلد الأول ٣٩١ .

قالوا: نعم فلا نا وفلا نا وفلا نا. ثم قال (هل تفقدون من أ حد؟) قالوا: لا، قال: (لكني أفقد جليبيب). فطلبوه. فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه.

فأتى النبي (ص) فوقف عليه ثم قال: (قتل سـبعة ثم قتلوه؟ هذا مني وأنا منه. هذا مني وأنا منه). ثم و ضعه على ساعديه ليس له سرير إلا ساعد النبي صلى الله عليه وسلم- قال: (فحفر له ووضع في قبره ولم يذكر غسيلاً) أخرجه مسلم في صحيحه.

د. عدّاس:

وعدّاس هذا غلام نصراني، مسترق في ثقيف بالطائف. وهو نموذج من نماذج يتامى التاريخ. لقى رسـول الله (ص) حين ذهب إلى الطائف يسـتنصـر بأهله حين تأبى عليه أهل مكة.. خاصـة بعد موت عمه أبو طالب، وبالغوا في إيذائه.

وفي الطائف وجد عليه السـلام العنف والمجابهة حتى سـلط عليه أهل الطائف مجانينهم و صبيانهم، ودميت أقدامه. فلجأ إلى حائط لعتبة بن ربيعة و شيبة. فعمد إلى ظل شجرة من عنب فجلس تحتها واتجه إلى ربه بهذا الدعاء الآ سر الذي لا تزال تحمل مفرداته ذاك الدفء، وتلك الحرارة التي قيلت بها.. قال متضرعاً:

(اللهم إليك أ شكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحمَ الراحمين. أنت رب المسـضـعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملَّكتْه أمري؟ إن لم يكن بك علي غضبٌ

فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسـع لي يا أرحم الراحمين. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضـبك، أو يَحُلَّ عليّ سـخطك، لك العتبى حتى ترضـى، ولا حول ولا قوة إلا بك).

قال ابن هشام: (فلما رأه أبناء ربيعة وما لقي، تحركت لهما رحمهما فدعوا غلاماً نصرانياً يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فضعه بين يديه، فقل له يأكل. ففعل عدّاس، فوضعه بين يدي رسول الله (ص) وقال له: كل فقال عليه السلام: بسم الله،ثم أكل. فنظر عداس في وجهه، ثم قال: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول الله (ص): ومن أي البلاد أنت يا عداس؟ ومادينك؟ قال نصـراني، وأنا رجل من نينوي. فقال رسول الله (ص): " أنت من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسـول الله (ص): "ذاك أخي وكان نبياً وأنا نبي". وسـاعتئذ أكب عداسٌ على رسـول الله (ص) يقبل رأسه ويديه وقدميه وأسلم.

عـــدّاس: شخصية لم يتعرض لها التاريخ إلا هذه المرة، ذلك بأنه أحد هؤلاء الأخفياء.. ولكن تأمل عظمة هذا الصبي:

١ - لقد نصر الله به نبيه ساعة شدة، حين تأبى عليه أهل مكة وأهل الطائف. وكان عداس بذلك من آليات تدخل اللطف الإلهي. وإحدى البشارات إلى رسول الله (ص) وقد انفض الناس عنه.

٢- في مسيرة السيرة.. ومسيرة الدعوة.. شاهدنا أقواماً يعيش بينهم نور الهداية وهم يتأبون عليه ويرفضونه (أهل مكة). وآخرون يبحثون عن هذا النور عشرات السنين، يلهثون وراءه (سلمان الفارسي). وصنف آخر عجيب تأتيه الهداية تسعى إليه (عداس). فانظر أخي إلى عجائب صُنع الله (**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده)**.

و سكت التاريخ عن هذا الصبي فلم يذكره أحدٌ.. وهو بذلك أحد يتامى التاريخ.

هـ- ذو البجادين:

وهذا نموذج آخر لهؤلاء اليتامى المخبتين.. ذكره أهل السيرة مرة واحدة .. يوم مماته.. واسمه عبدالله المزني

يحدثنا ابن هشام عن سبب تسميته (ذو البجادين) فيقول: (وإنما سُمي ذو البجادين لأنه كان يُنازعُ في أمر الإسلام، فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد ليس عليه غيره. والبجاد الكساء الغليظ الجافي.. فهرب منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كسائه الواحد، فلما كان قريباً منه شق بجاده نصفين. اتذر بأحدهما واشتمل بالآخر، ثم دخل على رسول الله فسماه رسول الله (ذو البجادين). شهد مع رسول الله غزوة تبوك .. وعندما قفل رسول الله عائداً من تبوك أدركته الوفاة.

يروي عبدالله بن مســعود خبر وفاته(رضــوان الله عليهما) فيقول – كما يروي ابن هشام–:

(قمت في جوف الليل وأنا مع رســول الله في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتهما بنظري فإذا بر سول الله صلى الله عليه و سلم، وأبوبكر وعمر. وإذا عبدالله ذو البجادين المزني قد مات. وإذا هم قد حفروا له، ورســول الله صــلى الله عليه وســلم في حفر ته، وأبوبكر وعمر يدليا نه إليه، وهو يقول: أدنيا مني أ خاكما، فدلياه إليه. فلّما هيأه لشقه، قال عليه السلام: (اللهم إني أمسيت راضياُ عنه، فأر ضى عنه) قال: يقول عبدالله بن مسعود: ياليتني كنت صاحب هذه الحفرة.

ذلك نموذج من هؤلاء الأتقياء الأخفياء...

دخلو فقراء إلى الدنيا وكما دخلوا منها خرجوا

و- الصحابي أبوهريرة وجراب ذكرياته:

بكى الصحابي الجليل أبوهريرة عندما حضرته الوفاة، فتحدثوا معه فقال: والله لا أبكي آســى على ا لدنيا، ولكني تذكرت أخوا ناً لي من أ صحاب ر سول الله (ص) ذهبوا بحسناتهم، ولم ينالوا من الدنيا شيئاً، وبقينا بعدهم فاكترينا المال والمتاع، فنخشــى أن يقال لنا يوم القيامة أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واســتمتعتم بها. منهم مصــعب بن عمير جاءوا يكفنونه فتقاصــر كفنه فقال عليه الســلام: غطوا رأســه ثم أكملوا رجليه نم نبا الأدخر!! فانظر يا أخي إلى هذه النماذج .. هي

معالم في طريق السير إلى الله.. ومنارات للسائرين في حركة الإسلام.. نماذج قامت بتجويد الظاهر، وإعمار الباطن.

٣- أرباب الشوق إلى الله

مـــدخل:

صـــنف آخر من الذين ســبروا غور ذواتهم.. واكتشــفوها، وخبروا كنوزها.. هم أرباب الشــوق إلى الله.. لســان حالهم (لولا الأجل الذي كتبه الله عليهم لم تســتقر أرواحهم في أجســادهم طرفة عين شــوقاً إل ربهم). يتدافعون إلى كل عمل يرضى ربهم وقد عشقوا القرآن.. يحللون حلاله، ويحرّمون حرامه. يفعلون دلك في ع شق و شوق.. ما سرّ هذا الشوق والحنين؟.. إنهم صفوة من أهل الله. اكتشفوا ما أودعهم الله من قدرات هائلة، واســتعدادات، فحفروا في داخل ذواتهم بحثاً عن الكنز المدخور.. أصابهم رشاش من قوله تعالى: (ونفخت فيه من روحي).. خبروا أغوار قوله تعالى: (لما خلقت بيدي).. وســاعتئذ في دواخلهم إمكاناتهم المدفونة، ولامستهم ستور الغيب المكنون، وكساهم ربهم حلل اليقين. فتحققت فيهم البشــارة القرآنية: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ﴾ فصـــلـت: ٥٣. فخرجوا من الدنيا بقلوب مستيقنة، وعقول وقّادة، وفهم كبير، فأضافوا إضافات عظيمة إلى المسيرة البشرية وأمام أعينهم لقاء الله تعالى والنعيم الدائم. يهزهم حنين طاغ إلى وطنهم الأول (الجنة) حيث كانوا. وهذا الحنين- أخي القارئ- هو أصل في الروح، لأنها أمضت زماناً زاهياً في خضراء الجنة جوار الله. وفي آفاق الملأ الأعلى..

ولقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي (رحمه الله) وهو يعلق على الطفل حين يولد لوالديه فيفرحان به، وحين يموت يحزنان له.. قال في صورة يصحح فيها هدا الفهم للناس:

ولم يعلموا أن الولادة غُربةٌ   أُبيحتْ له عن خير دارٍ وجيرةِ
وموتَتُه عْودٌ له نحو أَهْلهِ   وأوطانِهِ الأصلَّية المستلَذَةِ

والحقيقة هذه صور عجيبة.. فالولادة – على التحقيق- هي اغتراب من جوار الله إلى دنيا نا، والموت- للصـــالحين من أبناء آدم- عودة وإياب إلى الوطن الأول.

ولقد ذخرت كتب الرقائق بوقفات عرفانية عن هذا المعنى شـــعراً قال ابن القيّم رحمه الله تعالى:

فحيَّ علي جنات عدن فإنها   منازلُك الأُولى وفيها المخيّمُ
ولكننا سَبْيُ العدوِّ فهل تُرى   نعُود إلى أوطاننا ونُسَلـَّمُ

كذلك الشيخ أبومدين التلمساني رحمه الله:

أما تنظر الطيرّ المقَنعص يافتَى   إذا ذُكِر الأوطانَ حنَّ إلى المَغْنَى
يُفَرِّحُ بالتَغْريدِ ما بفؤادِهِ   فيَطرُبُ أربابَ العُقُولِ إذا غنَّى
كذلك أرواح المحبِّينَ يافَتِى   تُهَزهِزُها الأشواقُ للعالم الأسني
أَنُلزِمها بالصَـبْرِ وهي مشُـوقة   وكيف يُطِيقُ الصـبرَ من شـاهدَ المعْنى

كذلك إشــارات العارف الأســتاذ محمد علي العجيمي في حكمة له يذكر الشوق والحنين إلى الوطن:

ولم يزلْ نصْب عيني أينما لمحَتْ في حالٍ أراهُ سِرَّ مِضْمَاري

ورَمَيتُ هيكلَ أرضِ الجسمِ في تَلَفِ وشُهُودُ أوصافه لم أخْشَ من عارِ

وفي سماء دورةَ الأقطابِ عُجْتُ فلمْ أرَ سوىَ ظَبيَةٍ العلمَينِ في الدار

إنِّي أحنُّ إلى تلكَ الربوعِ ولِي عهْدٌ قديمٌ بها من قبل إحضارِ

حنين إلى ا لدهر الأول حين خا طب الحق جلا وعلا ا لذر ية قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ الأعراف: ١٧٢

وهو عهد قديم في عالم الأرواح، ويبقى الوفاء به أمراً لازماً. ولكن الأرواح تفاوتت في وفائها بذلك العهد عندما نزلت إلى دنيانا.. وهو عهد في الذمة والوفاء به شأن الأحرار.

الشهداء – الدبابون

إن أكبر مضــمار للشــوق إلى الله هو مضــمار الشــهادة والشــهداء.. هؤلاء الراكضون سراعاً إلى لقاء ربهم. قديماً فيما زخت به كتب السيّر، وحديثاً تمثل في هؤلاء الشــباب في الســودان. جميع هؤلاء الربانيون اتخذهم الحق شــهداء، واصــطفاهم من لدن آدم إلى ســيد الأولين والآخرين.. والمجال غني بهذه النماذج الفريدة.

مدخلنا إلى عالم الشهادة والشهداء آيات سورة (آل عمران)، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٦٩ - ١٧٤

وقفات أولية:

١- لا تحسبن؛ لا تظنن من يقتل هو ميت.. فما كل من فارق الحياة بميت. فإن هذا حسبان وظن فاسد.

٢- قتلوا في سبيل الله: يتضح من تجرد المقاصد في سبب القتل، وأنه في سبيل الله.

٣- بل أحياء: وليس أحياء فقط، وإنما يرزقون عند ربهم، لأن الميت لا يرزق.

٤- لاحظ كذلك (عند ربهم)، وهي عندية خاصة.. وفي داخل هذه العندية يرزقون (بالفعل المضارع) الذي يفيد الاستمرارية، ولذلك لا يصلى على الشهيد، ولا يكفن، وإنما يدفن في ملابسه.

٥- فرحين.. ويستبشرون.. فرحاً بما لقوه.. واستبشاراً بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم.

ثم تمضي الآيات فتتحدث عن عنت وتعب وجدوه في حياتهم: (قال لهم الناس إلن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم).. كانت النتيجة (فزادهم إيماناً).

هذه الخارطة لمسار هؤلاء الشهداء.. كيف كانوا في حياتهم؟؟ هم أكبر من الآخرين.. هيأهم الله تعالى للشهادة.. وكنموذج لهؤلاء لا بد من وقفة أمام ظاهرة (الدبابون) من هؤلاء الشباب.

هؤلاء الشباب المعاصرون.. الذين تدافعوا إلى أرض المعارك في الجنوب والشرق.. وفي الجنوب واجهوا الدبابات بأجسادهم .. كان الواحد منهم يخلع بزته العسكرية، يسقيها (بنزيناً)، ثم يقذف بها داخل الدبابة، ثم يدب هذا الشاب، حتى إذا وص الدبابة اعتلاها وهو يحمل (القرنوف)، يفجر ها به.. ثم تنفجر وتتطاير شظا يا ها وهو معها.. ولذلك أطلقوا عليهم (الدبابين).

هذه الطلائع من شباب السودان أمرهم عجيب.. ومن هم؟

إذا فتشت صفوفهم تجدهم شباب ثانويات وجامعات.. تجد أحدهم في السنة النهائية (طب)، والطب أمل في أعين الناس، والسنة النهائية فيه أعجب. تجد الآخر.. هندسة، آداب، حقوق. كان يمكنهم أن يموتوا في قلب المدينة، وفي غرفة انعاش بأحد المستشفيات الحديثة، ولكنهم اختاروا أن يموتوا وسط الغابات والمستنقعات،

ليكونوا طعاماً للوحوش الكا سرة، وتكون مقابرهم بطون الـ سباع، وحواصل جوارح الطير.. إن أمرهم لعجيب..

هؤلاء هم الدبابون، الخارجون على المألوف، الباذلون أنفسهم في سبيل الله.. وأنعم به من بيع.. إنهم طائفة من أرباب الشوق إلى الله، وأهل الحنين الطاغي إلى لقاء رضوان الله عليهم..

الله أكبر من نداء ما أحيلاه نداءْ
يزكي الكوامن في الشعور ويستحث الأوفياء
أبناء أمي زينة الدنيا الكرام الأتقياء
دَوّى النفيرُ فأسرَعتْ صوبَ النفير الأوفياء
الباذلون دماء هم في الله ديّانِ السماء
ويحفُّهُمْ ملأ الملائك والسكينةُ والصفاءْ
يمشون في قدسيّة المحراب في وَمَضِ الضياء
هي أمنيات حاليات داعبتني في خَفاء
فلعلّ ربي يستجيب لنا ويَمْنَحنا الدعاء
فنكونَ نحن الوارثين الأرض أركان البناء
نمشي بدين الله ننشره فيرتفع اللواء
ونكبر الله العظيم مجددين له الثناء

(٤) أرباب المعية والحضور

وهذا صنف آخر من هؤلاء الربانيين المعية هنا تعني: استشعار العبد أن الله معه على كل حال. وذلك من غير تحيز ولا تشبيه. وهي

قمة في التوكل واليقين. وقد عرض القرآن صوراً لهذه المعية. وهي صور تعكس كيف فتش هؤلاء في تضاريس ذواتهم فوقفوا على الكنز الدفين، وتمددت فيهم معاني استشعار معية الله، فسلكوا سلوك الموقنين، فوافتهم السكينة والطمأنينة. ومن هذه الصور :

(أ) مشهد يوم الغار:

يقول سبحانه وتعالى حاكياً عن التجاء الرسول (ص)، وأبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى غار ثور بمكة والمشركين يطالبونهم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ التوبة: ٤٠

والشاهد هنا استشعاره عليه الصلاة والسلام معية الله في مناخ قلق واضطراب والمشركين خارج الغار. وأبوبكر رضوان الله عليه يقول يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى شسع نعله لرآنا. وسيد الأولين والآخرين يفصح عن يقينه في الله الذي لا يتزحزح: (لا تحزن إن الله معنا)[٢].. ولاحظ أن العبارة مسبوقة بحرف التوكيد (إن)، فهي ليست عبارة ظنية، إنما هي يقينية. كأنه أقسم على ربه، واستيقن معه استيقاناً ينقل

[٢] سورة التوبة، الآية ٤٠ .

الغيب إلى شهود.. وتأتي الاستجابة السريعة لحسن الظن بالله، والتوكل عليه، لنبدأ بالفاء (فأنزل الله سكينته عليه)[٣]، والمقصود بالسكينة هنا هو أبو بكر، إذ أن رسول الله (ص) قد ملأ يقيناً و سكينة، بدليل قوله لصاحبه (لا تحزن إن الله معنا) وانظر متى نزلت السكينة.. نزلت في لحظات قلق وترقب، ومساحة زمنية ومكانية حرجة للغاية.

(ب) يوم موسى وفرعون والبحر:

وهذه لوحة أخرى لأرباب (المعية) تسوقها سورة الشعراء وهي تحكي ملأ يقيناً وسكينة، بدليل قوله لصاحبه (لا تحزن إن الله معنا) وانظر متى نزلت السكينة.. نزلت في لحظات قلق وترقب، ومساحة زمنية ومكانية حرجة للغاية.

(ب) يوم موسى وفرعون والبحر:

وهذه لوحة أخرى لأرباب (المعية) تسوقها سورة الشعراء وهي
تحكي قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾
فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا
لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ
وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي
سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ
فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ
أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ الشعراء: ٥٢ - ٦٨

---

[٣] سورة التوبة: الآية ٤٠ .

ونلاحظ أن الآية سكتت عن (الضرب) و جاءت بالنتيجة.. واللوحتان نموذجان لاستشعار المعية وقت الشدة والنزال.. هما يمثلان حضوراً مع الحق، واعتماد عليه ويقيناً صبراً وتوكلاً. والسائرون على النهج من أهل القبلة لهم حظ من هذا الحضور، واستشعار للمعية بقدر تأسيهم بهذه النماذج. وعلى هذا الدرب سار أهل العزائم متأسين بمنهج الأنبياء وإليك صور من هؤلاء الصالحين:-

(ج) الفضل بن عياض:

كان يقول: (إني لأعصي الله فأجد أثر ذلك في خلق دابتي وجاريتي)...

نظرة شمولية لسلوكه جميعه.. يقصر في جانب فيجد جزاء ذلك في الجارية والدابة. وهو نظر (عولمي) لمشاكله الخاصة.

(د) أبو القاسم الجنيد:

قالوا له ممن تعلمت المراقبة، فقال:" مِنْ سنّور[1] كان لنا، لاحظته يلاحق فأراً داخل جحره... فوقف السنور ينتظر خروجه، وقد جمع همه، وسكنت أنفاسه، حتى خرج الفأر، فالتقمه.. فتعجبت من تركيزه، وحرصه، ومراقبته باب الجحر، وقلت لنفسي: هذا قط جمع همه لينال فريسته، ألا تستطيعين يا نفسي أن تجمعي همك في الصلاة تأسياً به، لتنالين مرادك من الله؟! ألا تستحين؟.

---

[1] سنّور: هو القط.

(هـ) نماذج سودانية:

١- زارني صديق من أصدقاء الوالد رحمه الله- وهو (الشيخ المهدي) صالح، حافظ، عالم عابد. وله خلوة بكبوشية- وبات معي في صالون متواضع لنا في السجانة، وكانت لنا ساعة حائط تعمل بالبندول، معلقة على الجدار.. نام الرجل، وعندما أصبح الصبح، سأل عن الساعة، فأخبرته خبرها، فقال لي: هذا البندول يتحرك باستمرار؟ قلت: نعم. قال: ألا يغفل؟ قلت: لا.. قال سبحان الله يا ولدي، أنا نائم وغافل والبندول فوق رأسي لا يغفل؟!.. عجبت من حضوره مع الله، وأدركت أن الرجل له نسب بأرباب المعيَّة.

٢- جمعتني رحلة حج في السبعينات برجل من أهل الاعتبار، خفيف الجسم، والإزار، والحركة. لم أكن أعرفه من قبل. وكانت في صحبتي نسوة كثر من أرحامي، وعفشٌ وأحمالٌ. و صلنا مطار جدة .. أنهى الرجل إجراءاته على عجل، فقد كان يحمل شنطة يد صغيرة للغاية، وكان الزحام على أشده، والنهار قائظ، والحر يكتم الأنفاس، وإذا بالرجل ينهي كل إجراءاته ويودعني، لأبقى بعده حوالي الأربع ساعات.

جاء يودعني بعد أن أنهى إجراءاته بسرعة، فسألته: هل انتهيت يا شيخ؟. فرفع شنطة صغيرة هي كل ما يحمل وتبسم وقال: نعم انتهيت. ثم أردف: (يا أخي كذلك الأمر هناك!!)، وهو ينتقل نقلة عجلى سريعة إلى مشهد القيامة والحساب، ويشير إلى أن الخفاف في الدنيا هم سريعوا العبور يوم العرض الأكبر.. قال ذلك في هذا الجو الخانق. فعلمت أن

الرجل ينهل من بحر وا سع، وأنه من أهل الا ستبـصار، والاعتبار، ومن أ صحاب المعية.. ومن العجيب أنه لم يتيسر لي أن ألقى الرجل إلى الآن، وآمل أن يتيسر لي لقاءه.. ولقد قلت في كلمة لي من ديوان (أنفاس العشية) من قصيدة (أعراس الروح):-

وبين جنبيّ نفسٌ قد تملكها   حُبّ الحياة وأغوتها الضلالات
كَلَتْ عن السير للمولى وما ظعَنتْ   وعطلّتْها تَضاريسٌ عصيّاتُ
لكنّ رحمة ربي لا تضيقُ بمن   يأتي حمى اللهِ تغمرُه الرجاءات
أسيرَة الطّين والأيامُ مدبرةٌ   كيفَ الفكاكُ وقد وهنَتْ إراداتُ
أتذكرين معانٍ طالما لمعَتْ   بين الحنايا وغطّتَها سحابات
ماجَتْ سراديبُ نفسي بعد ما سَكَنتْ   عَهداً طويلاً وغالتْها الجِنايات
قد أثقلتْها معاني الطّين فارتكستْ   من ظلمةِ الحمأ المسنون تَقْتات
وأنْكَرتْ نفحةَ الرّوح الزكيَ بها   وداخلتْها رعوناتٌ وآفاتُ
ما عادَ يشغلها التَحنْان للوطنِ   الأمّ القديم ولا الدورُ الزكيّاتُ
يا ليتَها مُلئتْ عَزماً يحرّكُها   ومازجتْها فيوضُ أقدسياتُ
وليتها بُعِثَتْ من بعد غَفْوتِها   وعطرّتْها الترانيمُ الشجيّات
فأرسلَتْ لحنَها العذريَّ منُسْكباً   وعرْشَتْ في مغانيها الفيوضاتُ
وفجّرت صَخْرها الصلديَّ فانبجسَتْ   منـها عيونٌ وأنهارٌ معينات[1]

---

[1] من ديوان (أنفاس العشية) للمؤلف.

قبيل الوداع

أخي القارئ—

هل تراني أوفيت المو ضوع حقه.؟ و سبرت أغوار هذا الآدمي..؟! هيهات هيهات، فذلك مرام صعب المنال.. كيف يتأتى ذلك والحقائق القرآنية تمد لسانها لي.؟ لسان حالها ينطق: (يا صاح أنت ما فضضت الغلاف بعد) فأسرار الكون، وأسرار الإنسان دائماً متجددة.. كلما تكشف منها جانب قاد إلى جانب آخر.. هكذا تمضي البشرية مع تقدم العلم وآلية البحث، لاهثة وراء هذه الأسرار، مكتشفة كل يوم شيئاً جد يداً.. وتتحقق النبوءة القرآنية قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ فصلت: ٥٣

الآية تتحدث عن آيات متجددة.. متواصلة.

قرأ سلفنا الصالح هذه الآيات، واجتهد في معرفة أسرار الكون والنفس، وجال ببصره وبصيرته، ووصل إلى بعض هذه الخفايا.. ولكنه فهم بأن الآية تتحدث عن (سنريهم)، استمرارية ومستقبلاً.. وتمضي العصور، تعمر ها أجيال وأجيال.. وهم ينحتون الفكر، ويعملون آلياتهم.. والزخم من المعلومات يترى، وتكشفت أمامهم الآيات في (الآفاق)، وفي (أنفسهم). ويستمر هذا الأمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الرؤيا هنا التي سيرنا لها الحق ليست هي الرؤية البصرية البسيطة فقط، والتي نشاهدها من مظاهر النجوم، والشمس ، والقمر، والإنسان المتحرك المتكلم.. هذا مجرد باب للرؤيا المقصـودة، والمعنى أعمق من ذلك بكثير.

(سـنريهم): بما نتج لهم من وسـائل الاكتشـاف، ونمكنّهم من آلية البحث، سنكشف لهم عن تفا صيل دقيقة من هذا الكون من حولهم.. بل من حنايا أنفسهم ومنعرجاتها الحسية والمعنوية (حتى يتبيّن لهم أنه الحق).

والتبيّن هو الوضـوح السـافر.. كأنما الزخم من الدلائل يسـتمر، وتتعدد الوسـائل، لسـبر غور أسـرار الكون والنفس، حتى يتضـح و ضوحاً كاملاً لكل ع صر، وكل جيل، وعبر إمكاناته المتاحة، يتـضح أن الله هو الحق، وأن منهجه هو الأعدل، وأن سبيله هو الأولى.

ثم يختتم المقطع بهذه العبارة المستفزة للحس البشري: (أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)؟! الشهيد هو صيغة مبالغة من (شاهد)، وهو العالم الحاضـر. ويعني ذلك أن معية الله كانت ولا تزال شـاهدة حا ضرة على كل صغيرة وكبيرة (لا يعذب عنه مثقال ذرة).. ألا يكفيك ذلك أيها الإنسان لتستشعر آفاق هذه المعية وتتأدب معها..؟!

وهناك ميدانان مستهدفان بالاستكشاف:-

١-في الآفاق: وهو هذا الكون العريض.. الواسع.. الممتد.

٢-وفي أنفسـهم: الجسـم البشـري وعجائبه.. والنفس البشـرية ومخفياتها.

وتستمر البشرية تركض في كل عصر وجيل في داخل هذين الميدانين، تكتشف كل يوم جديداً.. وكل ذلك عساها تتبيّن أنه الحق.. وأنه الصراط المستقيم.

وعندما تتمدد هذه المعاني في حنايا النفس.. وبين البشر، تصبح الحياة كلها في نظر المسلم مسرحاً للتعرف إلى الله تعالى، وسبيلاً للولوج إلى حماه، والوفود إليه.

تصبح كل لحظة من لحظاتها هي خطوة في المسيرة إلى الله.. وأي مشهد من مشاهدها هو درج وسلم للصعود إلى معرفة الله، والقرب منه. فينسجم الإنسان مع منظومة الكون وهي تسبح بحمد ربها.. (وإن من شيء إلا يسبح بحمده). فيعيش الإنسان في سلام مع نفسه ومع الكائنات من حوله.. ينسجم مع إيقاعاتها.

ولقد أمضيت فترة مقدرة من حياتي ولا أزال.. أدندن حول أسرار هذا الإنسان وهذا الكون... وهو همٌّ لازمني من أيام الصبى الباكر.. ونحن تلاميذ .. وفي مرحلة الثانويات – من القرن الماضي.. فعشت مراحل.. حيرة.. وتنقيب.. كانت من أخصب أيام العمر.. ولقد انتهت بي إلى يقين والحمد لله..

وهذه التجربة قد حظيت بالتوثيق والتسجيل شعراً أودعته ديوان (أنفاس العشيَّة).

والقارئ سيطالع في ختام هذه الر سالة نماذج من تلك التأملات في ذلك الزمن الأخضر..

١-   قصيدة (أنا).

٢-   قصيدة (قصة الإيمان).

٣-   قصيدة (الخلوة والجلوة).

١- قصيدة (أنا)

إلى ذلك النوع من الأفراد الذين يحسون أنهم شيء

وهم في نظر الحقيقة بعض الشيء... ١٩٦٢م

أنـا مَـنْ أنـا يـارَبُّ في مـعـنَـى الـحـقـيـقـةِ والـوجـودْ
هَـلْ صَـخـرةٌ صَـمَّـاءُ تَـجْـثُـمُ كـالـمَـنـايـا مِـن بـعـيـدْ
أمْ وَقْـعُ لـحْـن سـائـغ يـحـكـي أحـاديـثَ الـخُـلُـودْ
أمْ قـطـرةٌ في الـبـحـرِ ذابَـتْ وانـتْـهـى الأمـلُ الشَّـرُودْ
أنـا يـا تُـرى مَـعـنـىً تسـرَّبَ مـن رُبـي دُنـيـا الـعـبِـيـدْ؟
أم يـا تُـرى نَـفْـسٌ تُـكـبَّـلـهـا الـنـوازِعُ والـقُـيَـودْ
أنـا لسـتُ أدري مـا- الأنـا- ولـكَـمْ أُرَدّدُ
مَنْ أنا؟؟

***

وطَفقْتُ أبْحَثُ عَنْ حقيقة عالمي بَيْنَ الفيافي
مَلأَ الوُجُوُم عَلَيَّ كونِي وَكَمْ بَكْيتُ على جَفافِي
أينَ الليالِي المُخضلاَتُ وأينَ تسبيحُ الضَّفافِ
وتساءَلَتْ عَنِّي المدينةُ في سكونٍ وارتجافَ
مَنْ ذلك الَّشبحُ الشقيُّ وذلك الخِلُّ المُجَافي
هل يا تُرى أ نا ذ لك الشَّبحُ ا لذي أسْمُوَهُ (صَافِي)؟
لكنَّنِي ما زِلْت أجهلُ في الحقيقة..
مَنْ أنا؟؟

***

وخرجْتُ أبحثُ عن حقيقتي التَّي ضاعتْ وذَاتي
زَحَمَ الفراغُ عَلَىّ نفسي وَكَمْ بَكْيتُ على حياتي
والدّهرُ يزحفُ والزَّمانُ يَقُصُّ فلسفة الرُّفَاتِ
هل يا تُرى أنا مَنهَلٌ يرتادُهُ زُمرُ السُّقاة
أم ذلك النَغَمُ الحَنونُ الحُلْوُ في لحنِ الرُّعاة
أم يا تُرى أنا مَهْمَةٌ أم رَجْعُ تلكَ الذَّكريات
وتعودُ أصداءُ السُّؤال
أَيا تُرانِي مَنْ أنا؟؟

***

وسألتُ شيخاً في الفضاء الرَّحب عنْ مَعْنىَ الحقيقة
فأجابني الشَّيْخُ الوَقُورُ بأَنَّهَا (شَيخ الطَّريقة)
وبأَنَّها التَّسبيحُ في جَوُف اللّيالي المُستَفَيقه
يجتَرُّ في رَشَفَاته ذكرَىَ ترانيم عَرَيقه
أو ذكريات للشَّبَابَ وَرْجعُ أَيَّام سحَيقه
وبأن فلسفة الوُجُودَ وسِرُّ ما تَبغى الخليقه
(قَدَحُ الكبيدة) في الشِّتاءِ وجُرْعة الّلبن الصَّديقه
ويعُودُ يُفْحِمهُ السُّؤال
أيا تُرَانِي مَنْ أنا؟؟

***

وتبَسَّمَ الطِّفلُ البَرئُ وبسمةُ الطِّفل دُعاء
وقرأتُ في عين الصَّغير الغَرِّ فلسفَة السَّماءْ
في عينه قَبَسُ الحقيقَة لمْ يُدنِّسْهُ الهُرَاءْ
إنَّ الحقَيَقةَ عندَهُ مَرَحُ الشوارِع والخلاءْ
هي لُعبَةٌ تحتَ الظِّلال مع (سُمَيَّةَ) أو (عَلاءْ)
لم يَدرِ ما معنى الحياةَ وما السعادةُ ما الثَّراءْ
وترسَّبَتْ في (اللاشُعَورِ) صدى شُكُوك
من أنا؟؟

***

ولقيتُ في دربي الطَّويلِ على المدى أطيافُ شابْ
قد أنهكَتْهُ على السُّرَي بَعضُ الجلاميد الصِّعابْ
فسألتُهُ وقد انطوى أو راحَ يَهدُرُ في انتِحابْ
فأجابني أنا يا أخي (مُستَوحدٌ) بين الصِّحابْ
أنا تارة أجدُ الحقَيقة في مُعاقرةِ الشَّرابْ
والغانياتَ الفاتناتِ وبين أحضانَ الكعَابْ
وأعودُ أبحَثُ عن حقَيقة عالمي بينَ الشِّعاب
ويعُودَني رَجعُ الوساوس
يا تُراني مَنْ أنا؟؟

أو تارةً أجدُ الحقيقة عندَ إحراز (الشهادة)
وأكونُ في لغة (الجيَاع) قد احتويتُ على السعادة
أستوردُ (الموديل) كي أغزُو به نظرات (غادة)
وأهيمُ فَي بلدي الرَّحيب وفي محافلها أُنَادَي
أَزْوَرُّ عن لُغة الضَّمير وعَنْ حقيقِتي المُعَاده
ويعُودنَي رَجْعُ السُّؤالِ..
أيا تُراني مَنْ أنا؟؟

***

إنَّ الـحـقـيـقـةَ قصَّـــةٌ تـحـكـي وتـروى مـا يَـروُعْ
فالشَّـــيخ لا يَبتغى سِــــــوى وَحْيَ التَّظاهُرَ في الرُّكُوعْ
يخلُو منْ المعنَى العميق منْ التهجُّد والهُجُوعْ
والـطـفْـلُ في بَسَـــمـاتـه البَـلـهـاءَ فـلسـفَـة الـنُّـزُوعْ
والشـــابُّ تُسْـــكرهُ البُطولةُ ولو حوَت معنَى الخُنُوعْ
يـمشـــي يُـحـقِّـقُ ذاتَـهُ فـإذا بـه يَـرثُ الـخُضُـــوعْ
هـــو كُـــلَّـــمـــا غَـــنَّـــى تَســـاءل
يا ترانِي من أنا؟؟

***

ولـقـدْ بَـدتْ خَـلـفَ الـغُـيُـوم تـلُـوحُ أضـــواء الـيـقـيـنْ
هـو كـل شـــيء في الـحـيـاةَ وقصَّـــةٌ في الـعـالـمِـيـنْ
هـوَ قـائـدُ الـرَّكـب الـذي يـحُـدو ركـابَ الـمُـدْلـجَـيـنْ
فـتَـراهُ في غَسَـــقِ الـلَّـيـالي الـغُـرِّ بـيـن الســاجِـديـنْ
وإذا سَـــرَى نَـفَـسُ الصَّـــبـاحِ تَـراهُ بـيـنَ الـزَّاحـفـيـنْ
يـمشـــي عـلى دربِ الـحـيـاةَ ويسـتـحـث السَّـــائـريـنْ
هـو آدمُ الـدنـيـا الـجـديـدة واعـتصَـــاراتُ السِّـــنـيـن
قـــد رَدّدتْ كُـــلّ الـــعـــوالم
إنَّه معنى الحقيقةَ

٢- قصيدة (قصة الإيمان)

إليه في حيرته وإلى كل نفس دارت في فلك الحيرة زماناً..

وإلى تلك القصة التي طواها النسيان في أراضي الجزيرة[1] المحيريبة ١٩٦٢م – لقيط القطن.

قلبٌ تَدفَّقَ بالحياةِ وبالمعاني السرمديّةَ
وتشرّب الألحانَ وارتَشفَ الترانيم الشجية
غَنّى على وتر الحياة مع الصَّباح وفي العشيّة
كم هام بين شعابِها يبغى حقيقته الخفية
لكنّه كم مَلّ مِن سَخَف الحياة العَنجَهية
ورنا إلى النَغمَ الحنون لعلّه يزدادُ ريا
قد عاد مكلومَ الفُؤادِ وحوله ضَحكُ الصبيَّة
وعلى جَبين الفجر سطرٌ
ليْتَه ما كان شَاعِرْ

***

[1] السبت ٢١/ ٤/ ١٩٦٢م المحيريبة بنادي الموظين الساعة ١٢:٣٠ أيام اللقيط وقد تأخرنا عنه يومئذ. هو الأخ الكريم والضابط بالقوات المسلحة فيما بعد: حيدر بابكر المشرف. فقد تذاكرنا هذه المعاني في جلسة مباركة .. وكانت هذه الخواطر.. فإليه أهديها..

قَـلْـبٌ تـمـزّق بـالـهـمـوم وذاقَ نـيـران حَـيْـره
عـانـى مـن الألم الـدفـيـن ولم يـجـد في الأرض غـيـره
هـو مَـرَّةً وَكَـرُ الـرذَيـلـة ومـرّة تـلـقـاه ديـرا
متـقـلّـبٌ والـركـبُ يَضْـرب فِـي الـفـلاة يـحـثُّ سـيـرا
ويـظـلُّ يـرقُـبُ في الـفِـجَاج ولـيْـتَـه قـد كـان طـيـرا
ليحسّ نغَم ضميره

ربَّاه عبدك قد شَهِدْ

قـد ظَـلَّ يـبـحـث في الـلـيـالي واسـتـخـفَّ بـه الـحـنـيـن
والـنَّـاسُ في جـوف الـظَّـلام يـلـفُّـهـم ذاك السُّـكـون
وعـلـيـهـم أحـلامـهُـم تـبـكـي عـلى الأمـل الـدفـيـن
عَـرفـوَا الـحـيـاة طـلـيـقـةُ غَـرّاء في ظـل الـمُـجـون
هل يا تُرى علموا بما يحيويه قلبي المُستكِين؟
أم يـا تُـرى صَـرفـتـهـمُـو دُهَـمُ الـزَّمـان عـن الـمَـعـيـن؟
وعـن الـطـبـيـعـة في رحـاب الله في ظـلِّ الـيـقـيـن
وإذا بصـوت مـن عـمـيـق الـنَّـفـس يَـدْوي في أنـيـن
وإذَا به صوتُ الضمير يَرِنُّ

رَبِّي قَدْ شهدت

***

قـد عُـدْتُ في دنـيـايَ حـيّـاً عـنـدمـا انشـــقَّ الـقـمـرْ
وتَسَـــرَّبَـتْ عـنـد السّـــحـور صَـــدى تـراتـيـلِ السّـــحـرْ
وتَـنَـفَـس الصُـــبْـحُ الـنـديُّ وهـزّ أعـطـافَ الشَـــجَـرْ
وتَسَـــرّب الـخـيـطُ الـرقـيـقُ يُـعـيـدُ أحـلامَ الـبَشَـــرْ
نَـفَـضَ الـفـتـى أثـقـالـه وسَـــلا الـتـأوّهَ والضَـــجَـرْ
ورأى دواخـــل نَـفْسَـــه فـإذا بهـا ذئـبٌ خَـطَـرْ
هـي دولـةٌ فـيـهـا الـنـزاعُ الـمسـتـمَـيـتُ الـمُسْـتـعِـرْ
بـيـن الـكـآبـة في الـنـعـيـم أو الـتَـمـتُّـع في الـخَـطَـرْ
وإذا بــه في ورقــةٍ مِــثـلَ الــنســيَــم إذا خَــطَــرْ
ويَـهُـزُّه نَـغـم الـوجـوَد ورجْـعُ أنـفـاس السَّـــحَـرْ
وإذا بأصواتِ الطَّبيعة
رَبِّ عبدك قَد شَهِدْ

والشمسُ في كَبِد السماءِ تَحثُّ قافلة السُعاة
كلٌّ لغايته يَسَيرُ ويَرتَدي رُوح الغُزاه
إلا فتَىً أمسَى يُحدَّقُ في المواكبِ في أناه
في قلبَه قلقٌ مُمضٌّ قد تنِامى وأحتواه
وتظلُّ تقذفه الشُكوَك تَروحُ تنهشُ من قُواه
فيروحُ يسكبُ دمعةً خرساءَ تجري في أَناه
قد كان يَبحثُ عن حقيقته ويبحَثُ عن مداه
لكنَّه وجَدَ الحقيقة خَلْف أبوابِ الحياة
فإذا بها نُور اليقين وقد تَجلَّى من سماه
إنسابَ حُلْواً عاطراً يَسقيه من فيض الإله
وَيَدبُّ بين ضلوعه

رَبَّاهُ عَبْدك قد شَهِدْ

***

وتمُورُ في عُمْق الزَّمانِ مجاهِل القَدَر المرير
تحكي الفظاعاتَ التي ساقتها فلسفة القشور
هذا غنيٌّ مترفٌ متقلِّبٌ بين الحرير
يَمْشي على الأرض الجميلة مَشْي مختال فخور
لكنَّه في نفسه عانى منْ آلامٍ وزُور
وكأنّه فوق الحرير على لظى نَارِ السَّعير
وهناك فتىً تربى بين أحضان الصخور
لكن دواخلُه تموجُ بكلِّ أصناف الحُبُور
رَبَّاهُ ما سِرُّ الحياة وما السعادةُ وما الضمير؟
وإذا بصوت من كياني
ربِّي إني قَدْ شهدْت

لله مــا أحــلَــى الــزمــانُ ومــا ألــذَّ شـــرابــيــا
شـــذراتُ طـيـفـك يـا صـــديـقـي رائـحـات غـاديـة
وعــواطــفٌ جـيّــاشـــة في أغــنــيــاتي الســـاريــة
قضـــيــتُ في أرضِ الــجـزيــرة ذكــريــاتٌ حــالــيــة
إن الــحــيــاة روايَــةٌ ولــمــاضـــي فــيــهــا أغــنــيــة
خـفـقـاتُ قـلـب مُـفـعـم بـالـذكـريـات الـغـالـيـة
فـإذا عـظـامـي يـا صـــديـقـي قـد ثَـوَت في الـنـاحـيـة
وعــلى ثــراهــا قــد نَــمــا شَـــجَــرُ الأراكِ الضَّـــافــيــا
وغـدا ســـراب الـطـيـر يَســـكُــبُ أغـنـيـاتٍ مُشْـــجَـيـة
فــأتــرك أنــيــن الــنــائـحــات ودَعْ حــديــثَ رثــائــيــا
وأذكـر أنــاشـــيـد الـكـفـاح ولـحـنَـهـا في الســـاقـيـة
وصدى حديثك في السُّهى
اللهُ أكبرُ قد شَهِدَّت

***

وإذا الشـــبـاب تَـجـمَّـعـوا وتـكـدَّســـوا في الـرَّابِـيـة
فـأحمـل عـلـيـهـم مـا يـجـيـشُ ومـا يـدورُ بـخـلـديـا
وأســـقـيـهـمُـوا نَـبْـع الـيـقـيـن وقـد تَـفـجَّـر صـــافـيـا
ذكِّـرهُـمُـو قصَـــصَ الـقـلـوب الـمـؤمـنـات الســـامـيـة
وأحمـــل أمـــانـــاتي الـــتـــي قَصـــرَتْ بهـــا أيَّـــامِـــيـــا
وأحـكـيـهـمُـو حُـلـمـي الـذي مـا زال بـيـن ضُـــلـوعـيـا
لا تـنـســـى في ســـمـر الـيـقـيـن حـديـثـنـا في الضَّـــاحـيـة
فـلـعـلَّـهـم قـد يـدركـون مُـنَـى الـحـيـاة الســـاميَـة
ولعلَهم سيُرددِّون اللحن
رَبِّي قَـدْ شهــدت

٣- قصيدة (الخلوة والجلوة)

صدى تجربة روحية ثرة.. وأيام صفاء عشتها – ١٩٦٦م

أخي إنّني مُسْتهامٌ غريبْ   وتَتْرَعُ ذاتي مِنْ غُربتي
ودنيايَ دُنيا جُنون عجيبْ   ودنيا صراع مع الظُّلمة
واقرأ فجراً سُطور الحياةِ   ومَعْنَى وجودي في سجدة
ألخِّصُ كُلَّ معاني الوجودَ   وسرُّ العوالم في كلمةَ
ويَبْهرُني مِنْ رُبَي دارها   رؤىً تتزاحمْ في الجَلْوةَ
ويقرأ ألواحها الزاخراتِ   فتىً ذو فؤاد وذو نظرة
ويَشْهدُ في أسطُر الكائناتَ   معانٍ تَدُلُّ على القُدرة
وتنداحُ ألحاني المُترعاتَ   فأرقصُ من جَذْوة النَّشْوةَ
وأعلمُ أنِّي غريبُ المعاني   فأهلي جَفَوْني على غرَّةَ
ولكنِّني في غربتي مُستهام   ومُستأنِسٌ داخل الوَحْشَةِ

أخيّ هلُمَّ فقد هَدْهَدتْني
حنايايَ مخبؤها منْ قديم
توشَّحْتُ بها منْ زمانٍ مَضَى
أجُوسُ بهنَّ خلال الدِّيار
أوِّقع ألحَانيَ الصَّادحاتَ
ولو تبعُوني لعرَّفتهُم
هنا لك حَيثُ الصَّفاءُ المُقيمُ

معانٍ تُعرِّشُ في ساحتي
وها هي في ذَرْوة الثَّورةِ
وعُدْتُّ بها اليومَ في خَلْوَتي
وأحدُو بهنَّ بَني جِلْدَتي
وأعصرُ فيها شَفافيتَّي
معَارجَ في ذُرَي الرَّبوة
وحيثُ المشاهد في الذَّروةِ

شكر وعرفان

وأنا أطوي صـفحات هذا السـفر لابد لي أن أزجي خالص الشـكر والعرفان لهذا التيم من الـشباب الذين أ سهموا في إخراج هذه الر سالة وعلى رأسهم الأستاذين:

- أمير محمود الجمل.
- حسن عبدالكريم.

والشكر موصول كذلك للأخوة في إدارة طباعة المصحف الشريف ..

والشكر من قبل ومن بعد لله الواحد الأحد على ما أفاء وأنعم.

والصلاة والسلام على سيد ولد آدم

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.